بسمة على شفاه المَوت

مجموعة قَصصية

الفائزة بجائزة المجلس الاعلى للثقافة ٢٠١٤

محمد صلاح زكريا

الكتـــــــــاب: بسمة على شِفاه المَوت - مجموعة قصصية

المـــؤلـــــف: محمد صلاح زكريا

الغـــــــــلاف: أ/ إيمان صلاح

المراجعة اللغوية: أ/ سلام عيدة

رقـــم الإيـــداع: 13713 / 2014

الترقيـم الدولـي: 978 - 977 - 6447 - 77 - 6

الإخـراج الفنـــي: أ/ حسين الحماقي - ت/ 01006674335

المدير العام: عيد إبراهيم عبدالله

جميع الحقوق محفوظة

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع، أو نشر دون موافقة قانونية مكتوبة يعرض صاحبه للمساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير.

العنوان: 6 ش التحرير، الدور 18، أمام محطة مترو البحوث، الدقي، الجيزة

هاتف: 0237621688 - موبايل: 01142050403

الموقع الإلكتروني: www.ibda3-tp.com

البريد الإلكتروني: info@ibda3-tp.com

بسمة على شِفاه المَوت

مجموعة قصصية

الفائزة في مسابقة المجلس الأعلى للثقافة ٢٠١٤

محمد صلاح زكريا

الإهـــداء

إلى أجمل زهرتين ببستان حياتي

وئام... و ... وصال

١ – صورة

ينتقل بين أرجاء الحارة، يحمل صورته القديمة، يحكي مع كلّ مَن يقابله، سئم منه الجميع، فلم يَعُد التعاطف من شِيَمِهم تجاهه.
ألمحه يقف أمام المَخْبز لعلّ صاحبَه يَلْقُفُه برغيفٍ، يجدُ غريبًا يبرز له الصورة؛ الأبيض والأسود ذات البرواز الخشبيّ المتهالك بألوان التراب الذي محا لونَه الذهبيّ.
الغريبُ يصطنع الإعجاب، يتركه دون الإصغاء إلى حديثه كاملاً.
لا أنسى كلماته كلّما قابلني يحكي عن هذا المسئولِ الكبيرِ ومكارمِه المتواجدِ معه في الصورة، يُكرِّمُه لكفاءته وتفانيه في العمل.
كان ذلك في حفلٍ كبيرٍ، وقف مزهوًا بنفسه والمسئولُ يُثني على إخلاصه وجدارته، لم يعد باقيًا من أثرِ هذا التكريم سوى هذه

الذكرى التي تحتويها الصورةُ البائسةُ. لا ينسى بعد التكريم كيف تآمر عليه زملاؤه في العمل غيرةً وحسدًا؛ دبّروا له من المكائدِ ما أفضى في النهاية إلى فصله من العمل.

لم يحتمل الموقف، أصيب بلوثةٍ عقليةٍ، أدخلته مصحةً نفسيةً قضى فيها سنواتِ شبابه، حتى إذا ما خرج والشيبُ نال منه والوهنُ بات رفيقُه، بحث عن ذاته.. عن ماضيه.. عن أهله، وجد إخوته قد تقاسموا منزله ولم يعد له مكانٌ؛ وضعوا أشياءه وحاجاتِه عند البواب، لم يأخذ منها سوى تلك الصورة، ضمّها إلى صدره، طاف بها يحكي أسراره، تعاطفَ معه الجميع لكنْ طالت حكاياتُه وأفرَطَ في سردها فسئم أهلُ الحارة وانفضّوا من حوله؛ الكبارُ يتجاهلونه، الشباب يسخرون منه، الأطفال يستهزئون به ويسعَوْن خلفه يقذفونه بالحجارة، لا يبالى فعشقُه للصورة يخفِّف آلامه.

يصرخ في أرجاء الحارة، "هكذا كُنتُ، انظروا إلى صورتي والمسئول الكبير يكافئني."

يَوَدُّ أن يؤكد للجميع أنّه يومًا ما كان إنسانًا عظيمًا، فثيابه الرّثّةُ ولحيته غير المهذّبة لا تعكس ماضيه.

ذاتَ صباحٍ شديدِ البرودة، استيقظت الحارةُ على مشهدِه جسدًا مُسجًّى علَى الرصيف لا حراك به، يحمل ابتسامةً غامضةً، وبقوةٍ

يُطبِق على صورته بين أحضانه.
حملوه إلى مثواه الأخير. أمّا الصورةُ فقد ظلّت مُلقاةً على الرصيف تحتمي بالجدار دون أن يهتم أحدٌ بها، حتى كساها الترابُ. وبمرور الأيام اختفت، لم يَعُدْ لها وجود.

٢ - نهاية امرأة

ليلٌ كئيبٌ، ظلمةٌ سوداءُ تصاحبها في مَحْبَسِها وقد أفْضَتْ حياتُها إلى النهاية، لم يَعُدْ سوى سُويعاتٍ لتواجه مصيرها الحتميَّ ونهايةَ رحلةِ شقائها، كأنّها خُلِقَتْ من أجل التعاسة التي دفعتها قسرًا لخطاياها.

لم يَعُدْ للبكاء جدوى، وآهاتُ الدموع وسياطُ الندم تلاحقها، تفور آلامُها عندما تتذكّر طفلتَها، تتمنى لو لم تُنْجِبها، تخشى من مصيرٍ أليم ينتظرها وعارٍ وخزيٍ سيلاحقها، ربّما يدفعُها للخطيئة، وتصبحُ نسخةً مكررةً مِن حياتها العابثة، لكنّها الأقدارُ التي لا ترحم، تُجبِرُنا على المُضيِّ بعناءٍ ومكابدةٍ.

تتساءلُ بدموعٍ حميم، وماذا عندما يَشِبُّ عودُك بُنَيّتي؟ هل تنْصبُّ لَعَناتُكِ عليَّ كالتي تُوَجَّهُ لي الآن وسوف تُشيِّعُني بعد قليل؟ هل

تُقَدِّرين مأساتي وتلتمسين لي الأعذار؟ وتطلبين لي الرَّحَمات وسَمْتَ الغفران؟؟

لكنْ، ماذا لو سألك مُتطفّلٌ عن أمك؟ ماذا ستقولين لقريناتك عني؟

هل سيقبلُ أحدٌ أن تكوني زوجًا له وأُمًّا لأطفاله، وتاريخُ أمّك الأسود يلتصق بك؟؟

كيف ستكونُ حياتُك؟؟

و قد تركتُ لكِ ميراث الخِزْي في مجتمعٍ لا يرحم الضعفاء والتعساء مِمَّن وقعوا في الخطيئة وقد نسي الجميعُ أنهم ليسوا ملائكة؟

وما عساي أن أفعل؟ وقد خُلِقتُ لأجد أبًا جاحدًا وأُمًّا تركتني وحيدةً. عشتُ مُمزّقةً يعاملني الجميع بقسوةٍ ونَبْذٍ بلا ذنبٍ؛ زوجةُ أبي تحمِّلني أعباءَ لا طاقة لي بها، تتفنّن في إيذائي وتعذيبي، لَذَّتُها عندما تنجح في دفع أبي لِضَربي بلا شفقةٍ، إذا ما هربتُ إلى أمي أجدُ زوجها شيطانًا في صورة إنسانٍ، أمّا جدّي فلم يرحمْ ضعفي كأنني السبب في كلِّ شيءٍ.

تجرَّعتُ صُنوف الشقاء وأنا طفلةٌ منبوذةٌ بلا جريرةٍ، أَجْبَروني على ترك المدرسة، عملتُ خادمةً لهم، عشتُ بين قلوبٍ خُلِقَتْ من صخرٍ، يُعامِلون أطفالهم بكلِّ مودةٍ وحنانٍ وأنا شجرةٌ ذابلةٌ

بائسةٌ وسطَ التيه. ربّما بَصْيرَتُهم أضْحتْ لا تراني بشرًا مثلَهم حتى إنّهم سلَّموني صَبيَّةً لأولٍّ من طرق بابي؛ عجوزٍ فظِّ القلب، غليظِ اللسان، صحراءَ مقفرةٍ بلا مشاعرَ أو وجدانٍ، كأنّ الأقدارَ تُعانِدُني، لا ترحَمُ هَواني، لأظلَّ في وادي المذلَّة والبُهتان. حتى التَقَيْتُهُ في غِمار مُعاناتي؛ شابًّا يافعًا كالشمسِ في روعة شروقها والبدرِ في روْنق تَجَلّيه على الكون، لأوَّلِ مرةٍ أسمعُ كلامًا يروي ظمأي، يُطفئ نارَ الحرمان، أرْتَعُ من بستان الحنان وماذا يفعل الظمآن إنْ وجد نقطةَ ماءٍ وقد أوشك على الهلاك؟ عشِقته، انْسَقْتُ وراءه، وما ذنبي وقد صار الدواءَ وملجأَ الأمان؟ عشنا ليالي الخطيئةِ أتقلَّب في جنة عشقِه، واحةِ غرامه.

أعطاني الحياةَ وبعث السعادةَ مِنْ مَكنونِها، لم أحتملْ بُعده أو فِراقه، تخلَّصت من أيِّ عائقٍ يمنعُني عنه.

نَعَمْ بُنيَّتي، أبوكِ كان العائقَ الأكبر، لا تُلقي اللوم عليّ وحدي، اسأليه في مرقده الآن لماذا لمْ يُعاملْني كإنسانةٍ، لم يتورّع عن مذلَّتي وإهانتي، يُعايرني بأهلي الذين باعوني له. لم أحتمل؛ مزَّقتُه بلذةٍ وتَشَفٍ، لمْ أرحمْ صَرَخاتِه وتوسُّلاتِه، فمنْ لا يعرفُ الرحمة لا يرحمْ، جلستُ على جثّته أصرخُ من فَرْط غَبطتي ويَداي مُلطّخةٌ بدمائه كأنني قتلت كلَّ البشر مِمّن ذقتُ المرارة على أيديهم.

أعلمُ أنني مُذنبةٌ أستحقُ جزائي فظلماتُ الدنيا لا تبرِّر الخطايا لكنني كأيِّ إنسانٍ خُلِقتُ من ضعفٍ وهوانٍ.

بُنيّتى، لا تسمعي كلامَهم! سيقولون عني فاجرةٌ ماجنةٌ. هم الحمقى حقًا فأنا نارٌ أشعلوها ثم تركوها تأكلُ نفسَها.

٣- رئيس التحرير

دَلَفَ رئيسُ التّحرير إلى مكتبه دون أن يلقي التحية على أحدٍ مُتَجَهَّمًا كعادته، رمقني بنظرةٍ وأنا أبتسمُ صاعدًا الدرجَ لحظةَ خروجه من المصعد. ما إنْ استقرَّ جسدي على الكرسيِّ حتى رنَّ هاتفُ مكتبي، اعتدلتُ في جِلستي بعدَ أنْ سمعتُ صوتَ رئيسِ التحرير على الخط يدعوني للذهاب إليه في أمرٍ هامٍّ.

دَلَفْتُ إلى مكتبه والحيرةُ تُثقِل خطواتي، يُخالِجني شعورٌ بالرَّهبة فالكلُّ في الجريدة يَهابُه، يخشى من لَدَغاته. كان رئيسُ التَّحرير مُنهَمِكًا في مطالعة ملفٍ أمامه مكتظٍّ بالأوراق، يتمعَّن في كلِّ ورقةٍ وأنا أقف إزاءَه كطالبٍ ينتظر ردَّ فعلِ المدير بعدَ هُروبه من المدرسة. رفع المدير هامَته، أشار إليّ بالجلوس وعيناه تلتهم الأوراق.

قلت بخفوتٍ:

- أيّ خِدمة يا أفندم ؟

رشف رشفةً من قهوته الصباحيّة ونَضَحَتْ في عينيه نظرةُ دهاءٍ، مُتحدِّثًا بعد تفكيرٍ عميق:

- أنت صحفيٌّ مجتهدٌ، ولا تمنع الخلافات الفكريّة بيننا أن أُشيد بحماسك واجتهادك. لهذا اخْتَرْتُك لهذه المهمة ويقيني أنّك لنْ تُخيِّب ظنّي.

أومأتُ برأسي وقد طَفَرَتْ على شفتيّ ابتسامةٌ خفيفةٌ، ليستطرد رئيسُ التحرير ويمدَّ لي يدَه بالملفِّ الماثلِ أمامه:

- خذْ اطَّلعْ على هذا وافحصه جيدًا أمامي الآن، وأريدُ تعقيبك.

تناولتُ الملفَّ باهتمامٍ بالغٍ أُطالعُ أوراقَه، الملفُّ عبارةٌ عن فواتيرَ ماليّة؛ شراءٍ وأوامرَ توريداتٍ ومناقضاتِ شراءٍ وتقاريرَ لجانِ الفحصِ يخصُّ إحدى شركات قطاع الأعمال الكبرى بمدينة الإسكندرية. الجزءُ الثاني به تقاريرُ عن مخالفاتِ رئيس مجلس الإدارة، وأنّ هذه الفواتيرَ والتقاريرَ مفبركةٌ وتُخالفُ الحقيقة فضلاً عن وجود شبهةِ إهدارٍ للمال العامِّ تسبَّب بها رئيس الشركة.

زَفَرتُ وأنا ألوِّح بالملف:

- هايل! لا بد أن نكشف هذا الفساد.

تطلَّع إليّ رئيس التحرير بمزيدٍ من الاهتمام وقد لمعتْ عيناه:

- لا تتسرَّعْ، نريدُ أولاً التأكد من صحَّة هذه المستندات، حتى لا نقع تحت طائلة القانون.

طَلَّتْ نظرةٌ متسائلةٌ من عينيّ:

- مِنْ أين حصلتَ على هذا الملف ؟

داعَبَني مبتسمًا:

- وهل يُسألُ الصحفيُّ عن مصادرِه أيُّها الصحفيُّ الهُمام؟! اسمعني جيدًا، سوف تسافرُ باكرًا إلى الإسكندرية وتجري حوارًا مع رئيس مجلس الإدارة وتُواجِهُه بمحتوى هذا الملف ونَعرفُ رأيه بالضبط.

ظهر الضِّيقُ على ملامحي:

- وما فائدة الحوار؟ لا شكَّ أنَّه سوف ينكرُ ذلك؟ وبذلك نضيِّعُ وقتنا وجهدنا.

زوَّى ما بين حاجبيه هاتفًا بتجهم:

- نَفِّذْ المطلوب منك؟ الموضوعُ كبيرٌ جدًا، ولا تنسَ أنّ رئيسَ الشركة مَسنودٌ من مسئولين كبارٍ في الحكومة، والموضوعُ خطيرٌ؛ لو نزلَ في الجريدة سوف يفتحُ النارَ عليهم أيضًا. لهذا، فنحن بصدد حملةِ تحقيقٍ صحفيَّةٍ حول هذا الموضوع سوف تَنزِلُ في

أعدادٍ متتاليةٍ. الجزءُ المطلوبُ منك فقط إجراءُ هذا الحوارِ وهناك زملاءٌ آخرون لهم مهامٌّ أخرى.

خرجتُ تطوِّقني مشاعرُ عدم الرضا بعد أن جلست قُرابة الساعتين على طاولة الاجتماعات في مكتبِ رئيسِ التحرير، أدرسُ هذا الملفَّ وأدوِّنُ بعضَ النِّقاطِ الهامَّة؛ فقد رفضَ أن أختَلِيَ بالملفِّ أو أحصلَ على صورةٍ منه. تتأرجحُ في داخلي أفكارٌ شتَّى ويقينٌ داخليٌّ يؤكِّد أنَّ نوايا رئيسِ التحرير غيرُ سليمةٍ لكنْ لا مناصَ من تنفيذِ التكليف، ثمّ لأنتظرْ ماذا سيفعلُ.

بالهاتفِ حجزتُ موعدًا مع رئيس مجلس إدارة الشركة، في الصباحِ الباكرِ ركبتُ القطار المكيَّف أحملُ حقيبتي، فيها أوراقي وأقلامي وجهازُ التسجيلِ مُستعدًّا لهذه المهمة.

كعادتها تبدو الإسكندرية دومًا كعروسٍ تزيَّنتْ ليلةَ عُرسها وقد منحها الشتاء طيفًا من السماء يزيد بهاءها. في طريقي إلى الشركة تُداعبني طالباتٌ صغيراتٌ يحمِلْنَ حقائبهنَّ وابتسامةٌ ذهبيّةٌ على وجوهِهنَّ في طريقهنَّ إلى المدرسة. جلستُ في المقهى أستعرضُ جرائدَ الصباح فموعدي لم يَحِنْ بعدُ.

وصلتُ حسبَ الميعاد في الثانيةَ عشرَ ظهرًا، انتظرتُ حتى يفرغَ رئيسُ مجلس الإدارة من صلاة الظهر كما أخبرتني السكرتيرة.

في مكتبه الفخم، صافحني بوُدٍّ وحرارةٍ، أتأمَّلُ السِّجادَ الوثيرَ واللوحاتِ التي تزيِّن الجدران، تتنوع بين صورٍ طبيعيةٍ وصورٍ لبعض حفلاتِ الشركة، وعلى الجانب الآخر شهاداتُ تقديرٍ في منتصفِها صورةٌ كبيرةٌ للرئيس مبارك أثناء زيارته للشركة في بداية حكمه في الثمانينات وقد أحاط به عمالُ وموظفو الشركة.

دعاني رئيس الشركة للجلوس متصنِّعًا الكِبْر:

- نحن من أعرق الشركات وأَنْجَحِها، ليس في مصر فقط بل في الأسواق العربية كذلك، ونصدِّر منتجاتنا إلى أوروبا وأمريكا أيضًا.

أومأتُ برأسي محاولاً الابتسام وعيناي تتفحَّصه؛ على الرغم من شكله الوقور وشعره الأبيض الخفيف وابتسامته المفرطة، إلّا أنّ عينيه يُطِلُّ منهما المكرُ والدهاءُ، يجلس مُعتدًّا بنفسه يتنفس ثقةً.

لمحت خلفه بروازًا آخر له مع الدكتور كمال الجنزوري رئيس الوزراء الأسبق يسلمُ له شهادةَ تقديرٍ في إحدى المناسبات.

تهلَّل عندما لاحظ تركيزي على تلك الصورة.

- عشرُ سنواتٍ وأنا على رأس هذه الشركة، والحمد لله الكلُّ شاهدٌ على إنجازاتي. وهذه الصورة عندما كنت نائب الرئيس وتمَّ تكريمي كموظفٍ مثاليٍّ و...

قاطعته بلهجةٍ حادةٍ وقد أخرجتُ التسجيل:

- لكن ما لديَّ يؤكِّد غير ذلك.

تملَّكته دهشةٌ وعلا الوجومُ وجهَه:

- ماذا تقصد؟ أجئتَ لإجراء حوارٍ معي؟ أم للتحقيق معي؟

ـ أنا صحفيٌّ ومهمتي البحثُ عن الحقائق، وليس كلُّ ما يقال أو يُكتبُ حقيقةً. لهذا جئت إليك كي أعرفَ الحقيقة منك.

انتفض منتصبًا، يلوِّح بذراعه حتى كاد يصطدمُ بالساعي وهو يضعُ أقداحَ الشاي على المكتب:

- أنا فهمتُ لماذا جئت إلى هنا. للأسف، كلُّ إنسانٍ ناجحٍ في هذه البلد له أعداءُ. أكيدٌ جئتَ تردِّد كلامَ بعضَ موظفي الشركةَ هنا الذين يتربصون بي ويريدون فَشَلي وعَزْلي من منصبي. لكنْ، أنا مستمِّرٌ ولن أتنحّى أو أسمحَ لهؤلاء الواهمين أنْ يهدموا مسيرتي ويدنِّسوا اسمي.

حَدَجْتُه بنظرةٍ متأنيةٍ:

- لكنْ، لدينا في الجريدة مستنداتٌ تُدينُك وتُثبتُ صحة كلامي.

يضحك بصوتٍ عالٍ متغطرسٍ، يعاودُ الجلوس، قد تبدَّلت ملامحه فجأة إلى الصرامة:

- كما قلتُ لك، هناك مجموعةٌ هنا تريد الإطاحة بي وأكيدٌ هم من حملوا إليكم هذه الأوراق التي لن تهزَّ شعرةً في رأسي، فأنا لم

أفعلْ إلّا ما يرضيه عليّ ضميري، ثم إنَّ معظمَ هذه المخالفات التي يتحدثون بها غيرُ منطقية تصوِّر أنّهم يزعمون أنني عملتُ حفلةً لتكريم أبناء العاملين من أجل عيون نَجْلَتي وأنّ الحفلة تكلَّفتْ آلافَ الجنيهات، هل جُرمي أنني أريد تحفيزَ وتشجيعَ أبناءهم؟ ثمَّ إنّ نَجْلَتي من حقها أنْ تُكرَّم مثل الباقين؛ فقد تخرجتْ من الكُلِّية بتقديرٍ جيدٍ جدًا. يقولون إنَّني اشتريت لها سيارةً من أموال الشركة ضمن صفقةِ شراءٍ تمَّت العام الماضي، هل هذا يُعقلُ!؟ وأنا لديّ ثروةٌ بفضل الله تجعلني غيرَ مُحتاجٍ لمليم واحدٍ من الشركة.

ابتلعت ريقي بمرارةٍ، أَسْهَبْتُ معه في شرحِ ما تحت يديّ من مخالفاتٍ أكبرَ ممَّا يتحدث عنه، لكنَّ الرجلَ بدا يُجيدُ المُرواغة، ذهنُه حاضرٌ لكلِّ سؤالٍ، لديه من المواهبِ والخِبراتِ التي تجعلُه يكتسبُ ثقةً تزداد لديه، حديثُه لا يخلو من ذكرِ صداقته لمعظم وزراء الحكومة ومسئولين كبارٍ تعزِّز موقفه.

تذكرتُ رئيس التحرير وتساؤلاتٍ تُناوِشني؛ لماذا أرسلني إلى هذا الرجل؟ ولماذا اختارني بالذات؟

شعرتُ بفشل الحوار وخيبة أملٍ، ولا زال يقيني يزدادُ في عدم صفاء نيّة رئيس التحرير؛ فدائمًا نختلف في العمل ولا نتّفق في وجهات النظر لذا لم أرَ منه يومًا أيَّ خيرٍ تجاهي فقد أغدق على

بِطانته كلَّ المزايا وبقيتُ أنا وزملاءُ آخرون لي ضمنَ المغضوب عليهم نتعرَّض لِتَعَسُّفه ضدَّنا ممَّا أثَّر على أداء الصحيفة وفقدِها لكثيرٍ من مكانتها المرموقة بين الصحف؛ فقد تهاوى مستواها المِهْني وأُلغِيتْ كثيرٌ من الأبواب نتيجةَ تَعَنُّتِ رئيس التحرير وإبعادِه للكثير منَّا وعدم نشرِ موضوعاتنا ممَّا جعلَ توزيعَها يتراجعُ وتلاشى صدى تميُّزها بين القراء.

ابتسم رئيس الشركة بخبثٍ:

- أنا معجبٌ جدًا بالجريدة التي تعمل بها وأَحرِص على قراءتها يوميًا، لهذا يسعدني أن يكون هناك تعاونٌ بيننا.

قلت محتدًّا:

- ماذا تقصد؟

أطرق هنيهةً ثم نظر تجاهي مليًّا كأنّه يحاولُ أن يَفهمني أكثرَ ثم أمسك بصحيفةٍ أمامه منافسةٍ لنا يشير إلى إعلانٍ كبيرٍ في الصفحة الأخيرة عن الشركة وإنجازاتها، يبتسمُ بتودُّدٍ:

- ما رأيكَ في هذا؟ وسيكون لك نصيبٌ ولرئيس التحرير أيضًا وأنا تحت أمركم.

انتفضتُ كثورٍ هائجٍ أُلملم أوراقي:

- أتريد شراء صمتي بهذا؟ لا يا حضرة رئيس مجلس الإدارة، لو

ثبتَ صحةُ المستندات التي بين أيدينا لن نتهاونَ وسوف ننشُرُها أمام الرأي العام حتى يعرفَ حقيقة الأمر فهذه الأموال ملكٌ للشعب كلِّه.

اكفهرَّ وجهه ووقف غاضبًا يزمجر:

- هذا تحدٍّ أرفضه وبلِّغ رسالتي لرئيس التحرير.

عدتُ يحملني ألمٌ على تَبَجُّح الفساد وتصوُّراته أنه قد يشتري صمت الشرفاء بالمال، ازداد تصميمي على كشف الحقيقة مهما كلَّفني الأمر، لكنني فوجئت صباح اليوم التالي وأنا أعرض لرئيس التحرير حقيقةَ ما جرى بامتعاضه قائلاً لي بلهجةٍ أقربَ إلى الأمر العسكري:

- عمومًا انتهى دورك واتركْ لي الموضوع بِرُمَّته.

- لكن يا أفندم...

قاطعني بنبرةٍ غاضبةٍ:

- انتهى الكلام، وأنا صاحب الكلمة الأولى والأخيرة هنا.

وقفتُ عند باب مكتبه أصيح بلغةٍ وعيدٍ:

- عمومًا سأنتظر ردَّ فعلك لكنْ لن أصمت عن الحق.

مرَّت أيامٌ وقد انقطع حبل الودِّ بيني وبين رئيس التحرير تمامًا، اتَّضح أكثرَ بتجاهله لي في أيٍّ من اجتماعات التحرير في الصحيفة.

بعد بضعة أيام فوجئت بإعلانٍ مِلءِ الصفحة الأخيرة لتلك الشركة، تتصدَّره صورةٌ كبيرةٌ لرئيس الجمهورية حسني مبارك وأسفلُه على اليمين صورةُ المحافظ ويسارًا صورةُ رئيس مجلس الإدارة يهنِّئ الرئيس والمحافظ بعيد الأضحى متمنيًّا لهما الرقي والنجاح.

انتابتني حينئذٍ ثورةٌ عارمةٌ ومزَّقت نسخة الجريدة التي في يدي أصيح بصوتٍ هائجٍ أَفْزَعَ كلَّ مَنْ كان متواجدًا في مقرِّ الصحيفة.

- حرام! هذا ظلمٌ. الساكتُ عن الحقِّ شيطانٌ أخرسُ.

انزعج زُملائي وأنا أَقُصُّ عليهم ما حدث، بعضُهم زَمْجَرَ وتركني غاضبًا يهتف أَنِينُه بالإحباط واليأس بينما ارتسمت على وجهِ زميلٍ مقرَّبٍ من رئيس التحرير ابتسامةٌ ساخرةٌ.

في اليوم التالي فوجئتُ بقرار إحالتي إلى التحقيق، بعدَه تمَّ إيقافي عن العمل. لم أندهشْ أو تُصِبْني صدمةٌ فقد توقَّعتُ ذلك، حتى إنَّ الساعي استنكر بُرودي وهو يساعدني في جمع مُتعلِّقاتي من المكتب.

خرجتُ من مقرِّ الصحيفة تودِّعُني نظراتُ زملائي الحزينة دون أن يُعطوا العنانَ لمشاعرهم، خوفًا من بطش رئيس التحرير وعيونه التي تملأ الأركان. شعورٌ داخليٌّ يهتف بأنَّ الحلم مات، إحساسٌ بالخَواء يطاردني. رأيتُ في عيون الشمس سوادًا مَقيتًا كأنّ الفساد بَسَطَ رِداءه الأسودَ القبيحَ فشوَّه كلَّ الملامحِ ولطَّخ كلَّ المعالم.

سافرتُ إلى إحدى الدول العربية بعد قبولي للعمل بإحدى المجلات التي تصدر هناك، ودَّعتُ أحلامي القديمة وانتحى فكري الجامحُ نحو النور والحرية وانشغلتُ بعملي الروتينيّ في تلك المجلة المتخصِّصة في شئون الطفل والمرأة بعيدًا عن صراعاتِ السياسة وقضايا الفساد وكشفِ عورات المجتمع.

لكنّ عقلي لم يَغِبْ عن متابعة التطورات المتلاحقة في مصر، وهذا الفجر الذي بدأ يبزغُ بإشراقةِ الحرية مع خروجِ الملايين إلى ميدان التحرير وهذا الهتافِ الذي أيقظ المصريين من سباتهم برحيل النظام.

عاد الأمل يَفورُ في داخلي يدفعُني إلى العودة كي أشاركَهم نضالهم ولا أبقى مجرَّد مُشاهدٍ عبر الفضائيات، لكنَّ الأمر تطوَّر بصورةٍ أكبرَ من أيِّ توقعاتٍ فقد تنحّى مبارك وترك الحكم بعد أنْ ظلَّ جاثمًا على قلوب المصريين طيلة ثلاثين عامًا.

أشرقتْ شمس الحرية على وطني؛ أرى البسمةَ على الوجوه من إخواني هنا يهنِّئونني بنجاح الثورة المصرية. أمَّا زملائي القدامى في الصحيفة التي طُردتُ منها قهرًا فقد تهاوى خوفهم وكسروا كلَّ القيود وثاروا في وجه رئيس التحرير الذي كان يستمدُّ نفوذه من عضويته في لجنة السياسات بالحزب الوطني، بل وصل الأمر

إلى أنْ أغلقوا الباب في وجهه، منعوه من دخول مقرِّ الجريدة يدافعون باستماتةٍ عن شرف حريتهم يريدون إبادة عهدٍ كاملٍ من الظلم والقهر حتى اضطرَّ إلى تقديم استقالته والهروبِ إلى حيثُ لا يعرفُ أحدٌ مكانه خوفًا على حياتَه.

أما رئيس مجلس إدارة الشركة إيّاها فقد تصدَّرت صورتُه الصفحة الأولى من الصحف المصرية تُفيد بالقبض عليه في تهمِ فسادٍ وتَرَبُّحٍ وإهدارٍ للمال العام.

رنَّ هاتفُ مكتبي وأنا أتابع عملي الروتينيّ في المجلة، كان المتحدث من مصر يُهنِّئني

- احضرْ حالاً إلى مصر، لقد اجتمع زملاؤك في الصحيفة وكانت موافقتهم بالإجماع على اختيارك رئيسًا للتحرير.....

٤ - آخر صورة

تلاحقني رَنَّاتهم على هاتفي، يتساءلون عن سرِّ تأخُّري عن الحفل، وأنا أسرعُ الخطى كي ألحقَ بهم، في طريقي المزدحم والإرهاقُ ينتابني وشعورٌ ملحٌّ بالحاجة إلى النوم، شعرتُ بألمٍ طارئٍ في معدتي، تساءلتُ عن ماهيَّته وأنا لم أتناولْ منذ بداية اليوم سوى طبقِ الفول المُفضَّل من عربة العمِّ سيد، بحثتُ عن حمام عموميٍّ فلم أجدْ في طريقي سوى مسجدٍ دخلتُ حمَّامه مسرعًا وقد فرغ المُصلُّون من صلاة العصر، خرجت من الحمام مُنتشِيًا، أدركت لماذا كان جدّي - رحمه الله - يلقِّبه ببيت الراحة، هَمَمتُ باستكمال رحلتي لكنّ شخصًا ما استوقفني قائلاً:

"هيا توضَّأْ حتى نصلي جماعة"

انتبهتُ وشعرتُ بالحرج، وبَّختُ نفسي أنني لم أصلِّ اليوم،

انشغلتُ عن صلاة الظهر وها أنا أدخل المسجد دون أن أصلي وقد دخل وقت العصر، توضّأتُ، شعرتُ بطمأنينةٍ في صلاتي حتى إذا ما انتهيتُ، نسماتُ الراحة تداعبني، نظرتُ خلفي فوجدتُ شخصًا ممدَّدًا يَغُطُّ في نومٍ عميقٍ، أغراني وأشعلَ رغبتي المتزايدة في النوم، لكنّ هاتفَ أحدِ الأصدقاء يرنُّ، تأكدت أنه سوف يسألني عن سبب تأخري، لم أشأ الرد بل أغلقت الهاتف وتراجعت بجسدي نحو الرجل النائم وتمددت بجواره، أضعُ راحةَ يدي تحت رأسي لأستسلمَ لنومٍ عميقٍ. لم أدرِ كم مرَّ من الوقت لكني استيقظت وقد زال الإرهاقُ وسكينةٌ تسري في أوصالي، أدركتُ أنّ موعد الحفل قد انتهى لكني واصلتُ طريقي نحوه. وصلتُ لأجد الرفاق يقفون خارج القاعة يلتقطون صورًا تذكاريّةً وقد صاح أحدهم: "هيا نأخذ آخرَ صورةٍ.. صورةٍ جماعيّةٍ كلنا."

أتيتُ من خلفهم من حيثُ لا يشعرون في لحظةِ التقاطِ الصورة ثم انصرفتُ وهم في غمرتهم ساهون.

بعدها كلّما شاهدَ أحدُهم الصور تستوقفه الصورة الأخيرة، يقف والدهشة تكاد تقلع مقلتيه، يتساءلون عن كيفية وجودي فيها ولم يَرَني أحدُهم، كلّما سألوني: "لماذا لم تحضر الحفل." تأتي إجابتي بتأكيد الحضور والدليل: "آخر صورة "

٥ ـ الحلم والوهم

"الفطور جاهز."

جاء صوت والدتها من الصالة لينتَشِلها من حُلُمِها الجميل الذي طالما راودها وهي تتمعن في النظر إلى صورة هذا الفنان المشهور التي تزيِّن بها جدران غرفتها، تعزفُ معها لحنَ الأمنيات، والتَّطلُّع لأملٍ يرنو إلى دوامةِ المستحيل؛ فكيف لفنانٍ مشهورٍ له من المريدين والمعجبين أنْ يلتفتَ إلى أحدٍ أو يشعرَ بمن يُكِنُّ له الحب الحقيقي؟!

تناولت فطورها على عجلٍ، صورة الفنان لا تفارقها وغبطة الأماني تداعبها مع نسيم الصباح.

في طريقها إلى عملها في المَشفى، لم تنسَ أن تمرَّ كعادتها على

بائع الصحف، ربّما وجدت صورة الفنان تتصدر غلاف إحدى المجلات أو الصحف كي تقتنيَها وتتابعَ أخباره، حتى هاتفِها المحمول ملأت ذاكرته بأفلامٍ وصورٍ هذا الفنان.

روتينُ العمل في المستشفى الاستشماريّ الكبير وكونُها ممرضةً يشهد لها الجميع بالكفاءة، عَزَفتْ عن أيِّ اهتمام، يضطَّرم الحلم في داخلها، لا يرتبط به سوى الصورة، تتمنّى يومًا لقاءه، ربّما سَعَتْ إلى ذلك لكنّ الواقعَ يأبى.

- لقد اخترتُكِ للإشراف على هذه المريضة المهمّة جدًا لأنك الأكفأ ومظهرُك العام يجعلني أطمئن.

هكذا قال لها مدير المستشفى، لم تسأل عن ماهية هذه المريضة فهذه المستشفى لا يدخلها سوى القادرين وأصحابِ المقام الرفيع، لكنْ لفتَ انتباهها صوتُ زميلتها:

"يا بختِك" وهي متجهةٌ إلى غرفة تلك المريضة.

ابتسامةٌ صافيةٌ ونيّةٌ مخلصةٌ بالرعاية والعناية قدّمتها فورَ رؤيتها للمريضة، أثناء متابعتِها للحالة فُتح باب الغرفة وصوتٌ ناعمٌ رقيقٌ يَنُمُّ عن ذوقٍ عالٍ يأتي من خلفها:

"سلامتِك يا ستِّ الكلّ"

التفَتَتْ إلى هذا الصوت المثير، لم تُصدِّق عينيها، انتفضتْ وكأنّ

حيّةً لدغتها، لم تستطعْ السيطرة على أعصابها وهي تتلقّى ابتسامةً منه بوجهِه الوسيمِ وأناقتِه المعهودةِ، شهقتْ:

- حضرتَك!!

انفرجت أساريرُه أكثرَ، يَمُدُّ يده مصافحًا:

- نعم أنا، أهلاً وسهلاً بكِ، فرصةٌ سعيدةٌ يا هانم.

تلامستْ يدُها مع يدِه. شعرتْ بتيارِ نشوةٍ يسري في كيانها، تراجعتْ إلى الخلف، دوارٌ يُصارِعُها كأنّه حلمٌ من أحلامها، تُحاولُ التماسكَ وعيناها تتفحّصه بنظراتٍ ثاقبةٍ، لكنّه انشغل عنها بالاطمئنان على والدته. تقتربُ منه، تتأمّلُه برونقه، ما زالت ابتسامتُه ونبضُ يديه بصمةً تركها، فتوالَتْ موجاتٌ من السعادة تتراقص بداخلها.

لم ينسَ وهو يودِّع والدته النظر إليها بابتسامته المشرقة يثني على اعتنائها بوالدته، انعقدَ لسانُها فعجزتْ عن النطق، لكنْ فورَ خروجه غمرتْ والدته بالقُبُلات، تشكر مَرَضَها أنْ منحها هذه الفرصة السعيدة.

في اليوم التالي تكررَّ الأمر، تودُّ لو احتضنته وأطلقت العنان لمشاعرها، وفضحتْ خلجاتِها،

لكنّ قلقَه على والدته يمنعُها وخجلُها يُجهِض آمالها.

أثناء خروجها من المستشفى في طريق عودتها إلى البيت، فوجئتْ به أمامها يفتح باب سيارته، وقفتْ تعترضه دون وعيٍ، بادلتْهُ الابتسام، سألها عن طريقها،

نطقتْ ولسانُها يتلعثم:

- العباسية.

دعاها للركوب، فهي في طريقه حيثُ يقطن في مصر الجديدة، لم تصدقْ أنّها بجواره الآن في سيارته الفارهة، دمعتْ عيناها من الغبطة، كمْ عذَّبها هذا الحلم !! ها هو يتراءى واقعًا الآن، يشكُرُها على رعايتها لوالدته، تبتسمُ برقّةٍ، تُصارِع خجلها، وماذا تفعل الشمسُ عندما تجاهدُ كي تتجلّى على الكون فتغمُرها السُّحُبُ بلا شفقةٍ؟!

في إشارة المرور، أصحابُ السيارات يشيرون نحوهما، ينادون عليه، يبتسمُ برقةٍ قائلاً لها:

"مشكلتي في كثرة المعجبين"

وافقتْ على دعوته بتناول الغذاء في أحد المطاعم الفاخرة.

شعرتْ بالزهو والفخر، منضدةٌ واحدةٌ تجمعُهُما وقد أصبحا محطَّ أنظار الجميع مِنْ حولِهم.

تطلَّع نحوها يبدي إعجابه بأناقتها، يتغزل بعينيها، شعرتْ بقلبها سيتوقف أخيرًا، كأنّه الجنون بعينه، رغم فيض تلك الأحلام

الوردية التي عاشتها من قبل، لكنّها تشعر بضآلتها الآن وشعورها بأنّها في الجنة، تزدادُ نشوتُها بذوقه الرفيع، يُطعِمها ويلحُّ عليها أن تأكل أكثر، أطلقت العنان لمشاعرها، قهرتْ ضبابَ الخجل، أفصحتْ عن خباياها، سردتْ ولعَها وشغفَها به، ضحك مُنتشِيًا، تزدادُ جنونًا مع مرتَع ابتساماته وحنانه.

قبل أن يودِّعها، سألَته اللقاء، أخبرها أنّه سوف يسافر خارج مصر لمدة شهرٍ لتصوير أحد أعماله الفنية، وعندما يعود سوف يلتقيان مرةً ثانيةً.

كادت تصرخُ سعادةً وتنفجرُ من الوجد والعشق، تتقلَّب على رجاءِ آمالها، وسهدُ الانتظار يموجُ في داخلها طيلة هذا الشهر، لم تنقطع صلتها بوالدته حتى عندما خرجت من المستشفى، تسأل دومًا عن أخباره حتى عرفتْ موعد عودته وساعة وصوله إلى المطار لتهرول كي تستقبله، عبيرُ الأماني وجنةُ المستقبل تداعبها.

في المطار، وقفتْ تتعجَّل عقاربَ الساعة كي يَهُلَّ ويتجلّى برونقه، تنسجُ كلمات الترحيب والشوق كي تغمره فور لقائه، تمسك في يدها وردةً تستقبله بها.

غمرتْ طلعتُه أرجاء المكان وقد أحاطت به هالةٌ من المعجبين يهلِّلون لرؤيته، يتسابقون للتصوير معه، ينشرُ ابتساماته على

الجميع، يخرجُ من جيبه صُوَرَهُ كي يعطيَها لهم مُذيّلةً بتوقيعه.
وقفتْ تنتظر أنْ ينفضَّ مِنْ حوله هذا الجمعُ كي تستحوذَ عليه ولا ينشغلَ بأحدٍ سواها.
أقبلتْ نحوه تعترضُ طريقه، قَلْبُها يصبو إليه، تكاد تحتضنه، لكنّه لم يبالِ، نظر إليها بنفس تعبيراته مع المعجبين، يتحسَّسُ جيبه قائلاً لها بابتسامةٍ باهتةٍ
- آسف يبدو أنّ الصور خلصت.
يصمتُ برهةً ويده تتعمّق في جيبه ليصيح رافعًا يدَه بصورةٍ له:
- لا، حظّك حِلو! فيه صورة.
أمسك بالصورة يَهُمُّ بالكتابة، يسألها عن اسمها: "مَنْ أنتِ؟"
لم تصدقْ، كادتْ تصرخُ في وجهه، تُذكِّره بما مضى، لكنه أضحى أمامها بلا مشاعر، مجرد ابتساماتٍ مصطنعةٍ، حتى إنّه زاد من صفعته وانشغلَ بمعجبين آخرين، هَوَت الوردة من يدها، لم يشعر بها بل مضى في طريقه وقدماه تَطَأُ الوردة بلا هوادةٍ.

٦ - نشوة الغضب

أصواتهم تتعالى، تصل إلى مسامعي، لا أدري على أيِّ شيءٍ يتشاجرون، دومًا أنّاتُ غضبهم تتصاعد.

منذ أن تزوّج ولدُها لا تكفُّ عن الشجار معه ومع زوجته، انضوى الهدوءُ والوداعةُ التي كانوا يتَّسِمون بها.

تتداخل تلك الأصوات فلا تدري ماهيّةُ القصة والقضية حتى تحكمَ من خلالها أو تتبينَ الأمر. أحيانًا تتأذَّى أُذني ببعض ألفاظ السباب من الابن، شعورٌ ينتابني بأنّ الأمَّ مظلومةٌ فلقد عهِدتُها سيدةً مكافحةً، تسعى لتربية ابنها الوحيد منذ رحيل زوجِها الصّيادِ في ظروفٍ غامضةٍ، فلقد عثروا على جثَّته مسجَّاةً على ظهر قاربه في النهر، قيل وقتَها على لسان العامة إنّ الجنَّ والعفاريت قتلوه

لأنّه تجرَّأ ونزل أحراش النيل التي تقطنها العفاريت كما يعتقدون. أمّا العقلاءُ فأوعَزوا مقتَله دون إصاباتٍ ظاهريةٍ إلى معركةٍ تنافسيةٍ بينه وبين بعض أقرانِه من الصيادين حول مناطق الصيد.

منذُ ذلك الحين وتلك السيدةُ انغلقتْ حياتُها على ولدِها فنزلتْ إلى الشارع تبيعُ الخضار والفاكهة أمام باب دارها حتى بلغَ الولدُ سنَّ الشباب والتحق بالعمل بإحدى مصانع المدينة الصناعيّة الجديدة فرفض أن تمارس أمُّه نشاطها في التجارة، أقنعها بالبقاء في الدار.

لكنْ، مع قدوم عروسه انفضَّت بكارة الهدوء، اشتعلت الخلافات، ارتفعت الأصوات، لا يمرُّ يومٌ بنهاره أو ليله إلّا ونيرانُ الشجار تضطرم، ومشاعرُ الغضب تفور، وتكون الخاتمة بسماع نحيب الأم، حتى تعوَّدْنا على هذه الطقوس.

رأيتُها ذاتَ يومٍ على غير العادة تجلس في الحارة تستند إلى الحائط مُنزويةً تضع ذراعيها على ركبتيْها تدفن رأسها بينهما تبدو كجنينٍ في بطن أُمِّها وقد هَزُلَ جسدها، كان بوُدِّي أن أسألها ما بها ربّما أخففُ من أنينها، لكنّها بَدَتْ مُتصلِّبةً لا تعي ما حولها.

تعاقبت الأيام، غَيَّبَ المرضُ الأمَّ ليُعلن بعدها مؤذن الجامع عن رحليها ليودعها أهل الحارة في مشهدٍ مهيبٍ.

لم تختفِ أصوات الشجار بعد رحيل الأم بل زادت حدَّتُها وبات صراخ الزوجة كنشيدٍ وطنيٍّ؛ النسوةُ في الحارة كلّما التقيْنَ بها لا يسمعنَ سوى شكواها تتنامى من زوجها، أحيانًا نسمع أصوات ضربٍ واعتداءاتٍ تَصْحَبُها مفرداتُ سبابٍ نابيةٍ، أَضِفْ إلى ذلك صراخَ أطفالهم الذي يزيد من وَهَجِ هذه السيمفونية النشاز. رأيته ذات ليلةٍ يخرج من داره شبحًا كساه الشيب مبكرًا، تقوَّس ظهرُه واكفهرَّ وجهه بالهموم والأسى، تطارده صرخات زوجته تشيِّعه بالشتم واللعنة دون أن يردَّ عليها.

صار مألوفًا في الحارة أن نراه مُنكَمِشًا يستند إلى الحائط يدفن رأسه بين ذراعيه مستندًا على ركبتيه شاردًا عمّا حوله.

٧ - الملتحي والمتبرِّجة

يسير على مضضٍ، بقامته الفارعة، يتحسَّس لحيته الكثَّة، يقبض على يد طفلته الصغيرة، بجواره زوجته ترتدي نِقابها لا يُرى منها سوى عيناها الملوَّنتان، تُطبِق نظرات الدهشة عليهما، تنتقد ما يُطالعانه من مباهجِ القاهرة التي لم يعتادا عليها، صخبُ المقاهي برُوَّادِّها من الجنسين، أضواءُ الحوانيت وتَفَنُّنِ الفاترينات بما تعرضه مع طوفان هذا البشر.

هو يتمنَّى الانتهاء من هذه المهمة سريعًا ليعود إلى قريته طالبًا للهدوء بعد أن اضْطُرَّ للبقاء بالقاهرة فقد طلب منه الطبيب الذي يعالج ابنته أنْ يأتي باكرًا لعمل أشعةٍ.

عليه أنْ يبحث عن فندقٍ صغيرٍ يقضي فيه مع أسرته انتظارًا

لشروق الشمس.

لم يكنْ يتصور يومًا رؤية هذه الحقائق تتجلَّى أمامه رغم أنّه شاهدها في التلفاز وسمع عنها لكنْ أنْ تصطدم العين، فذلك يعطي للصدمة إحساسًا مغايرًا.

سوف يحكي لأقرانه عن تلك المشاهد، وهذه الوجوه المصطنعة كأنّها دمًى بلا مشاعرَ.

هي سوف تحكي لصديقاتها اللواتي يحضرن معها الدروس الدينية عن الفتيات المتبرجات يجلسن في المقاهي يُدخِنَّ النرجيلة، الدخان يتصاعد من أفواههن بنشوةٍ غريبةٍ، يخالطنّ الشباب ويلتصقنَ بهم في الشوارع بكلِّ حريةٍ وانطلاقٍ، تفوح رائحتهنَّ العطرة، يعرضنَ مفاتنهنَّ بتلك الثياب التي لا تستر، بلا حياءٍ أو رقيبٍ.

تزمُّ شفتيها استنكارًا، تنظر إلى زوجها تسأله:

"أليس لهن أهل؟!" يهزُّ رأسه متألمًا.

وصلا إلى فندقٍ صغيرٍ في أحد الشوارع الجانبية بوسط البلد وقد أَزِفَتْ الساعة من الحادية عشر مساءً .

في بهو الفندق استقبلتهما قهقهةٌ نسائيةٌ عاليةٌ، تطلَّعا نحو مصدرها ليجد سيدةً متبرجةً غمرت وجهها بالمساحيق الملونة والفاتنة تجلس مع شابٍ يمسك بيدها ويتطلع إلى صدرها الذي برزت

مفاتنه يكاد يمزِّق ثيابها الخفيفة، تميل إليه أكثر ليهمس في أذنها، نظرا إليها باحتقارٍ واستنكارٍ.

موظف الفندق استقبلهما بنظرةٍ مريبةٍ فهو لا يشعر بمودةٍ أو طمأنينةٍ تجاه الملتحين والمُنقَّبات.

أثناء إجراءات حجز الغرفة، طلب الموظف أن يرى وجه الزوجة ليطابق وجهها مع صورة البطاقة.

انفعل الزوج، غضب بشدةٍ، بينما يصرُّ الموظف مؤكدًا أنّ تلك تعليمات الفندق، وزميلته موظفة الاستقبال انصرفت منذ ساعةٍ.

يتأزَّم الموقف، الزوج يأبى أيَّ محاولةٍ للرضوخ، يقرر الانصراف إلى فندقٍ آخر حتى لو لزم الأمر المبيت في الشارع.

يتذكر الموظف أنّ الفندق يعاني من ركودٍ وقلة عدد النزلاء، يبحث عن مخرجٍ مع يقينه أنّ الزوج سوف يصرُّ على موقفه، تقع عيناه على السيدة المتبرجة يصيح فرحًا "وجدْتُها"

يقترح على الزوج الذهاب إلى السيدة المتبرجة يطلب منها الدخول مع زوجته الحمام كي ترى وجهها.

يتبادل الزوج النظرات مع زوجته، يشعران براحةٍ لهذا الاقتراح، يذهب إلى السيدة بابتسامةٍ

ومودةٍ بدَّدتْ تجهُّمه، المرأة تبادله الابتسام تُبدي موافقتها الفورية،

تدخل الحمام بصحبة الزوجة والبطاقة الشخصية.

ثوانٍ معدودةً تخرج تزيِّن الابتسامة مُحيَّاها تشيرُ بإيماءةٍ للموظف أنّ الصورة مطابقةٌ تمامًا لوجه الزوجة. يشكرها الموظف بشدةٍ على صنيعها.

الزوج والزوجة يقدِّمان آيات التحية والتقدير للمرأة، يتبادلان معها ابتسامة رضا وإعجابٍ.

٨ـ بسمة على شفاه الموت

"الله أكبر.. الله اكبر، ولله الحمد"

الحناجرُ تُحلِّق بهذا النداء، تُرفرف في الآفاق مع نسمات الفجر، تُوقِظ عَبير الحياة على يوم كوردة الروابي، ينتظرُ أنْ تبسطَ الشمسُ نفوذَها إيذانًا بنشر سعادةِ وبهجةِ العيد على الكون.

الرجال بجلابيبهم البيضاء، يصطحبون أطفالهم في أبهى ثيابٍ وزينةٍ نحو المساجدِ والخلاءِ لصلاة العيد وسط سيمفونيةٍ من تناغُم المحبة وفيض الابتسامات. الكُلُّ يُمنِّي نفسه بعِيدٍ طال انتظاره كي يُضفي نسمات الوِصَال.

تتوحَّد نظرات الرضا والمُنى إلّا من نظرة "وحيد" الذي يقبع أعلى نفقِ السكة الحديد، قد خرجَ من مخبأه في هذا الوقت

الباكر، يشاهدُ ألوان السعادة تمضي أمامه، يعجزُ عن امتلاكها أو شمِّ رحيقها، تغلِّفه ملامح البؤس واليأس، يخشى أنْ يضبطه سيِّدُه "متولي" بوجهٍ فظٍّ ينضَح بكلِّ تعابير القسوة والجفاء، وبطشِه الشيطانيِّ وسيطرته اللامتناهية عليهم، مَنْ يُخالف أوامره يَبْعثُه إلى ملك الموت بعد وصلةِ تعذيبٍ وقهرٍ تتجاوز التخيُّل.

"اليومُ عيدٌ ولا بد أنْ تستعدوا. انزلوا إلى الشوارع، انتهزوا فرحة الناس باستجداء العطف بالتسول أو بيع المناديل. والشاطر منكم ينتهز فرصةً غانمةً وينجح في سرقة أموالهم ويقتل فرحتهم."

كلماتُ سَيِّده بصوته البغيض ولهجة التهديد والوعيد تطارده كظلِّه.

يرتجفُ جسدُه النحيلُ وترتعد فرائصه عندما يتذكر زفراتِ "متولي" المقيتة التي تُشِعُّ رعبًا ورهبةً تُجهِض الجنين في رحم أمه.

ينظر حوله فيجد خرابًا وقذارةً تملأُ المكان، تنتشر بمحاذاة شريط القطار، ينظر أسفلَه يَجِدُ الشوارع تزينتْ كعروسٍ في ليلة عرسها، وأمواجُ البشر تسعى طربًا لأنغام العيد، يمتدُّ بصرُه يشاهد ربات البيوت قد فتحنَ النوافذ يستقبلنَ نسمات الحب و الأماني.

يبقى شبيهًا لاسمه "وحيدًا"، لا يتذكر من أمره شيئًا؛ وُجِدَ على صفحة الحياة هكذا وحيدًا شريدًا تلقَّفته عصابة "متولي" ليهوي في براثن البَغْي والتشرد ومافيا الإجرام.

لا مفرَّ مِنْ الخضوع لها وإلّا فالسيفُ على رقبته إنْ تجرَّأ وفكَّر في الهروب، فقد تشبَّعت عيناه بمشاهد التنكيل و أشد أنواع التعذيب حتى الموت لمن حاول العصيان من أقرانه.

الشارعُ مسعاه، موطنُ نشاطه، يظلُّ يكِدُّ طوال نهاره، في الليل يأوي إلى هذا الخندق بعد أن يَعرِضَ تقريره اليومي وإنجازاتِه محاولاً إرضاء سَيِّده، والويل إنْ تكاسل أو تقاعس.

دومًا يجاهد في رسم البسمة على وجهه المصبوغ بلون التراب كلّما شاهد طفلاً يصطحبُ والديه مزهوًا بحنانِهما بينما فؤادُه ينزف ألمًا وأسًى ممّا آل إليه حاله.

يسطع النور من حولِه، تتلألأُ أشعة الشمس البيضاء لكنّ عينيه محا الضبابُ زهوتها وانطفأ بهاء دروبها. يتجرَّع مرارة واقعِه المخيف، زميلُه يَنتشِله من شروده، يفضُّ بكارة أحلامه الصباحية، يُذكِّره بتعليمات "متولي"

يسرع "وحيد" إلى الشارع يحملُ عُلَبَ المناديل الورقيّة، يقف وسط الزحام و بانوراما الصخب ابتهاجًا بالعيد، يرسل نظرات الاستجداء والعطف إلى المارة كي يبتاعوا منه فيجني نقودًا تجلب له الثقة ومحبة سَيِّده، يتابع الأطفالَ في لهوهم، ترنو نظراته حيث تطير البالونات وترتفع مع تموُّج تلك الابتسامات البريئة. تقتُله

نظرةُ سخريةٍ من بائع الآيس كريم عندما تتحرك شفتاه، ويموِّج لعابه نحو بؤرة حرمانه وشبق أمنياته.

تهفو أحلامه، ترنو آماله، فيرى صورته تتجلى إزائه، قد أحاطت به ورودٌ من بستان الجنة، أطفالٌ بيضُ الوجوه بأجنحةٍ ملائكيةٍ من حوله يلهون، يغنّون احتفاءً وسعادةً به، يشاركهم الغبطة، يتراقص معهم والأماني تسعى نحوه، السعادة تتهادى إليه، يمدُّ يده نحوها، يودُّ احتضانها كي لا تبعد عنه، طفرتْ على شفتيه ابتسامةُ لؤلؤٍ منثورٍ.

سائق سيارةٍ طائشٍ يشقُّ طريقه، يشارك الناس فرحتهم، يتفادى زحامهم، يرتبك فجأةً لِما يقف حائلاً في طريقه. فجأةً صرخاتٌ تتعالى ومُقَلٌ دمعُها حثيثٌ، تنفجر سُحُبًا غائبةً والسائق زاد توترًا، عجز عن كبح جماح سيارته فاصطدم بالطفل ذي الثياب الرثّة وقد تطايرت المناديل التي كان يحملها، يهوي على بُعد أمتارٍ مضرجًا في دمائه، الناس تلتفُّ حوله تتأمله بهلعٍ، ما زال فاتحًا ذراعيه، البسمةُ لم تغادرْ شفتيه بعد، فما زال الأمل يحيا بداخله بأنّ السعادة تسعى نحوه على أمل احتضانها، صرخاتٌ مَكلومةٌ من بعض النسوة ممّن حضرنَ المشهد المأساوي، تزلزلَ المكانُ، تغتصبُ فرحة العيد.

٩ـ أبناء الهيش

تزايدت آلامه، تداعت همومه، لا زالَ الحلمُ الكامنُ في داخله يقضُّ مضجعه، ينظر حوله فيرى بناتِه الأربعة والناس تناديه بـ "أبو البنات"، تشاركه زوجتُه الهمَّ والحلم، تخشى من فقدانه أو هروبه لأحضان زوجةٍ جديدةٍ. ربَما تُحقِّقُ حلمه، تدرك أنّ الأمر ليس بيدها لكنْ، تهوِّن الأمر على زوجها لعلَّ المراد يتم يومًا ما.

سأل زميلَه في العمل، والأبَ لثلاثةٍ من البنين:

- لماذا معظمُ أهل بلدتك مشهورون بإنجاب الذكور؟

ضحك زميله يغمز بنشوة العارف المدرك للأمور كافةً:

- ألا تعرف السرّ، إنّه اعتقادٌ توارثناه عن أجدادنا ولا زال راسخًا في عقولنا نؤمن به إلى حدّ اليقين، فالرجل الذي لا ينجب الذكور

عندنا يذهب بزوجِه إلى خارج القرية في الهيش والأحراش يبيتُ معها ليلةً في العراء، يُواقِعُها فتحملُ منه بعدُ وتنجب الولد.

تهلَّلت أساريره وبَدَتْ الدهشة تحاصره:

- أحقًّا هذا الكلام أم تمزح معي؟

يواصل زميله الضحك والغمز:

- أقسمُ بالله حقيقةٌ، واسألْ مجرّبًا، هل تودُّ التجربة؟

أطرق بأسًى وحزنٍ:

- نفسي في ولد، صحيح البنات نعمة لكن السعادة لا تكتمل إلا بالولد.

- تعالَ، وسأرتبُ لك كلَّ شيءٍ كي تبيت أنت وزوجتك في الهيش، وبإذن الله سوف يتحقق حلمك.

غاص في صمته يفكّر بعمقٍ؛ أَهِي خرافةٌ وضلالٌ أم حقيقةٌ؟ لِمَ لا يجرِّبُ؟ ربّما.. ما المانع؟ لن يخسر شيئًا. لكنْ، كيف يفعلُ ذلك وحياءُ زوجته؟ قد ترفض وتأبى. لكنّ هاجس الحلم يطارده، يمدُّه بالعزيمة، يلهِب حماسه، يزيدُ من قناعاته.

حمل الاقتراح إلى زوجته التي حاولت إخفاء امتِعاضها وتذمُّرها، تبدو مترددةً، تحاول إثناءه عن ذلك فالأمر بيد الله وليس لعادات الأجداد البالية أيُّ قيمةٍ سوى المصادفة التي صوَّرها الجهل لهم

بأنها حقيقةٌ.

تمرُّ الأيام، يحاصره التفكير، تخمَّرت الفكرة في ذهنه، قرر المُضي والتجربة، ربّما يصادف ذلك.

لم تجدْ زوجته المُستسلمة لِقَدَرها سوى القبول، لكنّ الضجر يُلازمها.

مضى إلى زميله في الليلة التي حدَّدها الطبيب لحدوث حملٍ.

وسط ظلمات الهيش والمستنقعات، سار بصحبة زميله وخلفَه زوجتُه، حتى عثرا على مكانٍ يبدو ملائمًا، ليلةٌ خريفيةٌ دافئةٌ، أشعل نارًا يلتمس الأمان، ودَّعَهُما زميله متمنّيًا له ليلةً تحمل الهناء والبشرى.

على ضوء القمر، والسماءُ تلحِّفهما يُواقع زوجته بلا متعةٍ أو رغبةٍ، مجردُ محاولةٍ بائسةٍ نحو تحقيق الحلم الأكبر، زوجته كجسدٍ خشبيٍّ غابت روحها، انعدم إحساسها، تتلَّهف لبزوغ الفجر وانشقاق النهار كي تنتهي من ليلةٍ اغتَصَبتْ حياءها.

تتوالى الأيام، تُكمِل شهورًا والجنين بدأ يتحرك في أحشائها.

هلَّل وتعالت صيحات فرحته يُمنِّي نفسه باكتمال الحلم.

أمّا زوجتُه فقد أبت الذهاب إلى الطبيب كي يخبرها بنوع الجنين، ستترك الأمر للحظةِ الولادة، وقد زاد قلقها. تخشى من نهايةٍ مُفجعةٍ ويستيقظ زوجُها على الكابوس الذي يلازمه عندما تَلِدُ ويكون المولود أنثى كالعادة.

١٠ـ عانس

تُمزِّقها الحيرة، تقف على شاطئ الرجاء، تتمنّى نهايةً تُوصِد كلَّ الأبواب، تقتلع جذور ألمها، تُطفئ جذوة همومها، مازالت صدماتها تتوالى، تتعرَّى الوجوه أمامها، ليلُها يأبى الرحيل. وأين السبيلُ وبراثنُ الظلمة تُهيمن في الأفق، رأت الموت في حلمها، أملاً قد ينهي كلَّ أوجاعها.

"كفاية دلع.. دا أنسب عريس اتقدم لك"

صوتٌ بغيضٌ يتردَّد صداه فيُشعل آهاتها، كلّما تذكرت صورة العريس اشتعلَ حقنها، ازداد عصيانها وتمردها مهما لاقت من اعتراضات، تصمُّ أذنيها عن حديث والديها وتَبَرُّم الأهل والمعارف. كيف تقبله وقد سئم قلبُها وانطفأ أملُها وخاب رجاؤها.

لا بدَّ من التراجع كما كانت تفعل دومًا، وعدم استكمال الرحلة، فقد أبصرتْ لِتَجِده شخصًا كسابقيه تافهًا لا يحسن الظنَّ بالحياة، يجهل معانيَ الحب، لا يثير قلبها أو يؤثِّر في لُبِّها.

تُفضِّل دومًا أن تحمل لقب عانس، أفضل من أن تنغمس في التَوَهان، وتلقي بنفسها في نيرانٍ تُحرِق الأماني وتَغرُب بسعادتها.

اليومَ عانسٌ أفضلُ من غدٍ تحمل لقب مُطلّقةٍ ينبذها الجميع وينفضُّ من حولها الأحباب.

ما ذنبُها أنْ كانوا يجهلون فكرها ولا يقدِّرون مسلكها، قدرُها أن تلقى وجوهًا لا تُحسِن تقديرها وتتفهم حاجاتها.

تنام كل ليلة، مدامعُها تبلِّل وسادتها في ليلها المقفر، تنتظر الفارس الذي لا يأتي إلا في حلمها، كأنّه فقد طريقه إلى الحياة فأضحى صورةً مثاليةً تُعلَّق على الجدران، ربّما يغمرها التراب أو تُلقى في سبيل النسيان. ما زالت تنتظر ربّما فارسًا يروي ظمأها أو موتًا يُنهي آمالها.

١١ـ عصفور الخريف

يُعدُّ ملتقى الشعراء من الأماكن التي أَحرِص على الذهاب إليها، أَستمعُ إلى قيثارة الشعر وتلك القصائد التي تُلقى، وتتبارى المواهب الشعرية في عرض بضاعتها، وجوهٌ غيرُ مألوفةٍ وأسماءٌ غيرُ معروفةٍ. لكنْ تنبَّهتُ والمِنصّة تُعلن عن الاسم الذي حان دوره لإلقاء أبياتٍ من شعره ـ مصطفى فهيم... نفضتُ عن ذاكرتي غبار السنين، مِنْ مكنونها أَستخرِجُ علاقتي بهذا الاسم، زادت دهشتي وأنا أتفرَّسُ في ملامحه، لم أُركّزْ مع ما يقوله. أستعيدُ ملامحَ وجهه المثلث ذي البشرة الخمرية والنظرات الحادة.

أيقنتُ أنّه زميلُ الماضي ورفيقُ رحلة البحث عن الذات في درب الأدب، تذكَّرته فمهما حملت الذاكرة من وجوهٍ تبقى شخصياتٌ،

عسيرٌ أنْ ننساها.

التقيتُه في نادى الأدب بكلية الآداب، وقتَها كنت أتحسَّس طريقي؛ أقرضُ الشعر أحيانًا وأكتب النثر ولم تتحدَّد هويتي بعدُ، عرفتُه بتوهُّجه وحماسه وحبِّه الجارف للشعر فكان شعلةً مُوقَدةً من النشاط ممّا أهَّله لتَرَؤُّس النادي، يحرص على إقامة الندوات والمسابقات، فحظي بإعجاب وتقدير كلِّ مَن تعامل معه لموهبته وقدرته على الارتجال، فضلاً عن دماثة خُلُقه، يفتخر بكونه صعيديًّا من محافظة قنا، فلم يشأْ أنْ ينسلخ من جذوره فظلَّ على عهده ينطق بلهجته دون خجلٍ، ومن هنا اشتهر بيننا باسم "مصطفى الإسناوي"

لا يمكنُ أنْ أَنسى قصة الحب الكبيرة التي جمعته بزميلتنا "هبة عادل"، جمعَهُما جنون الشعر والحبِّ فكانت قصةً حينذاك يتحاكى عنها الجميع، وكنّا نستمتع بقصائد الغزل منهما.

في اعتقادي أنّ قصة الحب هذه أثّرت في نشاط نادي الأدب، وزادت من عزيمة مصطفى وإصراره على تفعيل نشاط النادي حتى حصلنا على المركز الأول في الجامعة للنشاط الثقافي. أذكرُ أنّنا وقتها أقمنا الندوات التي استضفنا فيها قامات الشعر العظماء. و استمرَّ نشاط النادي مع فيض الحبّ الكبير الذي يجمع بين

مصطفى وهبة على الرغم من الفوارق التي تبدو بينهما، هبة من أسرةٍ قاهريةٍ ثريةٍ تقطن المعادي لكنّ نظراتها كانت تقضُّ خجلها، تفضحُ ولعها بهذا الفتى الأسمر البسيط القادم من أعماق الصعيد.

انفضَّت السنون، انتهت مرحلة الجامعة، تباعدت المسافات، انقطعت سبل الاتصال وانفرط عقد أعضاء النادي، تاركين الكلية ونادي الأدب لجيلٍ جديدٍ آملين أنْ يستكمل المسيرة.

أمّا مصطفى فقد ذاب في دهاليز الحياة كغيره من الأحبّة، تلاشت أخباره، لم أعرف ما آل إليه حاله، لكن ها هو القدر ينسج خيوط حياتنا وتتشابك لنجتمع مرةً أخرى دون موعدٍ.

اقتربتُ منه بعد أن فرغ من إلقاء قصيدته وعاد لمقعده، أتفرَّس في ملامحه، تخطُّ السنينُ بصمتها على وجهه، وقد تنامت بعض الشعيرات البيضاء تغزو مفرقه، احتلَّ الصلع مقدمة رأسه.

انتبه لنظراتي، تبسمتُ في وجهه لإذابة ما قد يظنُّه تطفلاً من ناحيتي، أعرِّفه بنفسي خاتمًا قولي "هل تتذكرني؟؟"

جمودٌ أصابه ونظراتُه الثاقبة تخترقني، ثم انفجرت أساريره بالتهليل وطفرت الابتسامات على محياه، يعانقني بحرارةٍ كعصفورةٍ تحتضن صغارها تعاند تَعَسُّف الريح.

سألته عن أحواله، عمّا فعلت به الأيام، صوته الشَّجِن وتنهيداته

أثارت لهفتي لمعرفة المزيد، لم يكتشف ملامحه بعدُ، فقد قنع بحاله وقبع في قريته تاركًا أحلامه ومهاجرًا ذاته الشعرية.

سألته عن هبة، جاءت إجابته مقتضبةً وصادمةً :

" آخر أخبارٍ وصلتني منذ سنواتٍ أنّها في السعودية بصحبة زوجها "

صدمتني الإجابة وكأنّها تُلَخِّص حال رفيق القلم والشعر.

أردت التخفيف من وطأة يأسه وأشجانه، أهديته إحدى رواياتي سُرَّ بها وتهلَّل فَرِحًا يشيد بقدراتي متمنِّيًا لي التوفيق والاستمرار نحو استكمال المشوار.

أردتُ استنهاض همَّته وبعث حماسه القديم مطالبًا إيّاه ألّا يتنازل ويصمد، أُذكِّره بمصطفى الذي كان يشعل حماسنا ويستنكر فتورنا إنْ وجده.

ابتسم ساخرًا يهزُّ رأسه، ودَّعني بقوله:

" مأساتي تكمن في كلماتي، في زمنٍ صار بلا عنوانٍ، يا صديق الأمس لقد خلعتُ رداء الفروسية وتنحَّيتُ عن الشعر فلم يَعُدْ يُجدي وقد تلاشت كلُّ أحلامي بين براثن السراب، ما جئتُ هنا إلّا مصادفةً كنتُ في مهمةٍ عاجلةٍ في القاهرة ولمّا فرغتُ منها قادتني قدماي إلى هنا كأنّها لا تزال تحفظ معالم الطريق فألقيتُ

بعضًا من كلماتي البالية وسأعود الآن من حيث أتيت. "

اجتاحني طوفانٌ من الألم والأنين وقد ودَّعتُ صديقي بلا أملٍ في لقاءٍ جديدٍ، أتحسَّرُ على ما مضى، أستعيدُ ماضيًا جميلاً، قَدَرُنا أننا سنظلُّ نتباكى عليه مع قسوة الحاضر وغشاوة المستقبل.

نظرتُ إلى الشمس في صفرتها تستسلم لغواية الغروب، أَرتَجِلُ بعضًا من كلماتي تُلخِّص حال صديقي.

الضبابُ أطفأ الشمس منذ أمدٍ بعيدٍ
قطعوا كلَّ الأغصان فكَفَّ العصفور عن التغريد
حتى النهار أتى في ثوب الليل العتيد
و ماذا نفعل والحياة لا تعطينا ما نريد؟!

١٢ـ غروب

تسللت البرودة إلى جسده النحيل رغم الغطاء الكثيف الذي يغطيه، نهض من سريره، يقاوم وَهَنَ الشيخوخة، يتحسَّس طريقه في الظلام، أذناه تُفتِّشان في سكون الليل عن الصوت الذي اعتاد سماعه عند استيقاظه في ظلمات الليل الحالك لكنْ، لا أثرَ له.

ينتابُه قلقٌ، ربّما تأخَّر عن موعده ولم يدرك ذلك ومنعه الاستغراق في الكَرى، لكنّ السواد الشديد القابع خلف النافذة يهيمن على الكون يهدئ من روعه.

يلملم جلبابه الواسع طلبًا للدفء، صورة زوجته الراحلة تضيء ذاكرته عندما كانت توقظه في جوف الليل تنبِّهُه إلى موعده المعتاد فيستيقظ على عبير صوتها ودفء تواجدها الذي يشعل الغرفة حبًا وحنانًا.

لم يشأ الآن أنْ يوقظ ولده العريس وينتزعه من بين أحضان زوجته كي يسأله عن الساعة، وعن موعد الفجر.

اعتاد أنْ يستيقظ تلقائيًا مع الآذان ليذهبَ إلى المسجد ويصلي، لكنْ هذه الليلة لم يسمع للفجر أذانًا، استغنى عن الساعة منذ أمدٍ بعيدٍ، يعتمد على عقله الروتينيّ اليوميّ المعتاد، صبابة كفاحه مازالت تموج في كيانه.

أمسك عصاه، خرج يلتمَّس طريقه، يشقُّ طوفان الظلمات وقطرات الماء تتساقط من لحيته البيضاء لم تجفْ من وضوئه بعد.

جفناه مَرخِيَّان، عيناه قد انطفأ بريقُهما وقد تقوَّس ظهرُه وتهاوت حيويَّتُه، قدماه تحفظُ طريقها إلى المسجد لم يعدْ بحاجةٍ لمرشدٍ أو أنْ يُدقِّق أو يتذكر معالم الطريق.

اصطدمت عصاه بباب المسجد المغلق، لا يدرى ماهيّة الوقت، هل حان وقت الفجر أم مضى لكنّ اختفاء دبيبِ الناس وجلبةِ مطعم الفول المجاور للمسجد الذي اعتاد صاحبه فتحَه بعد الصلاة مباشرةً أحيا الأمل في داخله فجلس ينتظر على الباب بنفسٍ راضيةٍ تتنفس رحيقَ الفجرِ وبهاءَ طيفِه ورونقَ صفائه.

تتجلَّى على تجاعيد وجهه آثارُ ألمٍ دفينٍ يحاول التخلص منه، يتراءى إزاءه شريط ذكريات حياته على تباينُها وتفاوُتِها.

طفولتُه البائسة، رحلةُ كفاحه في شبابه، تعثُّرُ خطواته في هَرَمِه، مشاعرُ الرضا في شيخوخته، صبرُه بعد رحيل زوجته، ابتسامتُه يوم عرس ابنه، ظلَّت تلك الابتسامة تُزيِّن ثغرَه، تطاردُ ألمَه القابعَ بين أوصاله.

حضر عامل المسجد قرب أذان الفجر، وجده مُتكوِّمًا أمام الباب لم يندهش فقد اعتاد على رؤية مشهده المألوف فصاح بلا مبالاة: "صح النوم يا حج تعالَ ادخل المسجد."

لكنّه بات جزءًا من برودة الوجود، دخل العاملُ المسجدَ وبعد أن فرغ من أذانِه لم يجدْه بل سمع نحيبًا لبعض المصلين تنعى صديقهم العجوز الذي لم يتخلَّف يومًا عن الصلاة وكان يُحيي الأمل في داخلهم.

١٣- وصية المرحومة

"البقاء لله، ادعوا لها بالرحمة."

قنبلةٌ ألقاها الطبيب في وجهِ زوجها وأبنائها الذين تعالت صرخاتهم، لا يصدِّقون نبأ رحيلها، يلتفُّون حول جُثَّتها، نزيفُ الدموع يجلجل أركان البيت، تجمَّع الجيرانُ والأهلُ، وفيضُ النُّواح والنشيج يغمر المكان.

النسوة يلطمن الخدود، يختلطُ صراخهنَّ بنحيب الرجال، دقائقُ وبدأت حركةٌ دؤوبةٌ من أجل تجهيز الجثة لمراسم الدفن.

لكنّ خالتها صرخت:

- لقد أَوْصَتني المرحومة بأن تدفن مع أمها.

قال بعض الحضور:

- وصية الميت واجبةُ التنفيذ.

تبرَّم آخرون من مَشقَّة نقل الجثة من مكانٍ إلى آخر.

أحدُ الواقفين اتصل بالإسعاف كي تحضر وتَنْقُلَ الجثة، ردَّ المسعف:

- نحن لا ننقل الموتى.

احتاروا ماذا يفعلون، فالقرية ليست بها سيارةٌ تحت الطلب التي تنقل الموتى، إحضارُها من المدينة البعيدة سيستغرق وقتًا طويلاً ولن يسعفهم الزمن فقد أذاعوا في المساجد بأنّ الدفن بعد صلاة المغرب ولم يبقَ مِن الزمن سوى سويعاتٍ.

فاض الحديث، تعدَّدت الاقتراحات وما زال فريقٌ يؤيِّد دفنها في مقابرِ عائلةِ الزوج بدلاً من الذهاب إلى القرية المجاورة التي بها قبرُ والدةِ المرحومة، حُجَّتُهم أنّ الأمر عسيرٌ فنَقْلُ الجثة يستلزم المرور على كمين الشرطة وفي ظلِّ الحالة الأمنية المتردِّية الآن فإنّ كلَّ سيارةٍ تمرُّ يتم تفتيشها بدقةٍ.

الذي زاد الأمر سوءًا أنّ طبيب الوحدة الصحية قال إنّ تصريح الدفن لن يُستخرَج إلّا غدًا؛ فالموظف الذي بحوزته الختم غيرُ موجودٍ الآن.

رفض الجميع فكرة أنْ يتمَّ وضعُ النّعش بالجثة على عربةٍ نصفِ

نقلٍ خوفًا من الكمين.
كهلٌ وقورٌ عُرف عنه الحكمة والفطنة كان أشدَّهم إصرارًا على تنفيذ الوصية، اقترح:
- نذهب بالجثّة بملابسَ عاديةٍ في سيارةٍ ملّاكي تجلس كأنّها شخصٌ حيٌّ في المقعد الخلفي وبجانبها خالتُها كي تُسنِدَها حتى لا يرتابَ أفرادُ الكمين، ثمّ نذهبُ بها إلى بيت أهلها لكي تُغسَّل وتكفَّن، ومنها إلى مقبرة والدتها، تُدفن بجوارها.
ارتاح بعضهم لهذا الاقتراح، تذمَّر وزمجر آخرون خوفًا من إيقافِ السيارة وتفتيشِها والوقوعِ في خطأٍ جسيمٍ تكون نهايته خلف القضبان.
لكن بعد مداولاتٍ، رضخ الجميع لهذا المقترح، حملوا الجثة بثيابِ الخروج وسط آهاتِ الصراخ والعويل إلى السيارة.
بدا التوتر على السائق والأفكار تتزاحم في مخيلته، قَبْلَ الكمين بخطواتٍ زاد قلقه، نتج عنه اصطدامٌ خفيفٌ بسيارة نقلٍ كبيرةٍ، فقد وجد فجأة مقدمة الجانب الأيسر لسيارته تجنح ويبدو كما لو كانت انزلقت أسفل المقطورة لكنّه استعاد وعيه وتركيزه، أعاد السيارة لمسارها الصحيح بعد تَهَشُّمٍ جزئيٍّ في مقدمة السيارة لكنّه اضطرّ إلى مواصلة السير لكي ينجز المهمة دون عقباتٍ.

عَبَرَ الكمين دون أن يعترضه أحدٌ؛ فالعسكريّ جلس على كرسيّه يستمتع بشمس العصارى.

أثناء الدفن عندما همّوا بفتح مقبرةِ والدةِ المرحومةِ، جاء رجلٌ يسعى يعتَرِضُهم مؤكّدًا أنّ هذه المقبرة لم تَعُدْ تَخُصُّ عائلة المرحومة بعد عملية إعادة تقسيم المقابر بين عائلات القرية منذ فترةٍ، وآلت هذه المقبرة إلى عائلةٍ أخرى.

بعد التأكُّد من صحة كلامه دفنوها في مقبرةٍ أخرى قريبةٍ، علامات الارتياح تبدو على الوجوه، لقد نفَّذوا وصية المرحومة وإنْ لم يكنْ بالشكل المطلوب.

١٤ـ هارد لك

جاءني صوتُه عبر الهاتف منزعجًا من عطلٍ أصـاب جهاز الحاسوب ولا يعرف ماهيّته بحكم خبراته الضعيفة في التعامل مع التكنولوجيا، فهمتُ من كلامه أنّ الجهاز يحتاج لتحميلِ نسخةِ تشغيل "ويندز" جديدةٍ.

استقبلني في بيته بكلماتِ الترحيب والشكر على تلبية طلبه كي أصلح حاسوبه.

كان التوتُّر يسيطر على ملامحي وحركاتي؛ فخبراتي محدودةٌ ولم أتعامل مع تنزيل وتحميل نسخِ تشغيلٍ إلّا مراتٍ معدودةٍ، لكنّ رجاءه جعلني أوافق على مضضٍ.

قمتُ بتشغيل الجهاز لتظهر الشاشة السوداء بما تحمله من كلماتٍ

غيرِ مفهومةٍ، فوضعت أسطوانة النسخة وهو يتابعني بجواره ولده الأصغر، فسألت عن وائل ابنه الأكبر فأخبرني بأنه قد سافر إلى عمله بالإسكندرية.

بدأت الأسطوانة في التحميل بظهور الشاشة الزرقاء لتُصَاحِبَها نسمات الارتياحِ تُنعِشني لكنْ سرعان ما تبدَّدت مع ظهور رسالةٍ غريبةٍ لأولّ مرةٍ أُطالِعها تعلن عن فشل التحميل.

حاولت ترجمتها، فهمت بعضًا من كلماتها توحي بأنّ الجهاز به عطلٌ في الهارد وربّما لا يقرؤه.

أَعَدْتُ تشغيل الأسطوانة، ربّما عطبٌ ناتجٌ عن قلة خبراتي لكنّ الرسالة يتكرَّر ظهورها مع كلّ محاولةٍ.

بدأ التوتر يداهمني وحبيباتُ العرق تُلجِمني، أرى في نظراته التعجب، سألته بيأسٍ إنْ كان قد أصاب الجهاز عطلٌ ما أو انقطاعٌ مفاجئٌ للتيار الكهربائيّ أو اصطدم به شيءٌ صلبٌ أو حاول فتحه والعبث بمحتوياته، فجاء ردُّه بالنفي القاطع والاستهجان لأسئلتي، ممّا جعلني أحاول مراتٍ عدّةً والرسالة البغيضة السمجة تصدمني تقتل كلَّ أملٍ لاستكمال المهمة.

شعرت بالعجز، ربّما فشلٌ ناتجٌ عن خللٍ أصاب الجهاز أو الهارد تَلِفَ ولم يعدْ يصلح.

استنكر كلامي مؤكدًا أنّ الجهاز جديدٌ ولم يتوقف عن العمل من قبل. نزعت الغطاء الخارجيّ لأكشف عن الهارد، ربّما التوصيلات غيرُ سليمةٍ أو تحتاج لتثبيتٍ أكثر، بحثت عنه أفتش بدقةٍ فلم أجد الهارد، انتباني شكٌّ، ربّما أجهل مكانه الصحيح، أمعنت في الفحص ونظراته تلاحقني كأنّي تلميذٌ بليدٌ يقف أمام معلمه يتعثر في إجاباته.

تنهدت وسألت بضيقٍ: "هل نزع أحدٌ الهارد من مكانه؟"

ردّ متذمِّرًا: "الجهاز لم يمسَسْه أحدٌ."

لكنّ ولده الأصغر بعد صمت دهرٍ صاح بأنّه شاهد شقيقه وائل يعبث بالجهاز قبل سفره وفكَّ أجزاءً منه.

ارتميت على الكرسي ألتقط أنفاسي بعد طوق النجاة الذي ظهر أخيرًا. أمسك هاتفه بعصبيةٍ يتحدَّث إلى ولده وائل، اشتعلت نيرانُ الحوار، وتَبَارى في الغضب والسباب حتى إنّه ترك الغرفة ليتحدث في الصالة لكنّ صوته العالي بما يحمله من ألوان اللوم والوعيد يصل إلى مسامعي، استنتجت من ذلك أنّ وائلاً باع الهارد ديسك نتيجة رفض والده أن يُقرِضه.

عاد بعد إنهاء مكالمته محاولاً إخفاء غضبه، يمدُّ يده لي بكوب الشاي الساخن، يتحاشى النظر تجاهي، وأمارات الخجل تطوِّقه.

١٥ - حسن وحسين

وقف القائد مزهوًّا يصيح في جنوده بالثبات والحزم استعدادًا للتحرك صباح الغد لمواجهة المظاهرات المحتملة المناهضة للنظام، المجنَّدون البؤساء يتلقّون التعليمات بسذاجةٍ، يتمنون الخلاص من هذه المهمة الثقيلة ليس مهمة الغد فحسب، بل الفكرة المسيطرة عليهم متى ينتهون من التجنيد وكلٌّ يعود إلى أهله وداره يستكمل حياته، يتنفس حريته بعيدًا عن الميري ومَسَاوِئِه من وجهة نظرهم.

"حسن" أحد هؤلاء المجندين، لم يبق سوى شهرين وتنتهي فترة تجنيده ويتخلص من قيوده ليعود يساعد والده العجوز في أعمال الحقل ويتحمل مسئولياته في متابعة أشقائه الصغار.

يهنأ كلَّ صباح بدعوات أمه الطيبة التي ترى فيه أملاً للحياة وشروقَ مستقبلٍ أفضلَ.

فجر اليوم التالي انطلقت سيارة الأمن المركزيّ الكئيبة التي تُشبه صندوقًا من الصفيح ضاق ذرعًا بمن فيه. الوجوم يسود على الوجوه والكآبة تطبق على ألسنتهم فاختفى مرحهم، ساد أنينٌ مكتومٌ آملين أن ينتهي هذا اليوم سريعًا ولا تحدث اشتباكاتٌ وسقوطُ ضحايا، رغم أنّ آخر كلماتٍ سمعتها الأذن من القائد:

"لو هجم المتظاهرون عليكم اضربوا في المليان.. لا تترددوا"

يقف حسن وسط زملائه في الميدان الفسيح مدججًا بسلاحه والهراوات، تتعالى صيحات المتظاهرين وتتنامى أعدادهم بصورةٍ أربكت المشهد وبدأت الفوضى تتوغل في الأرجاء تُنْذِرُ بحدوث ما لا تُحمَد عقباه، مسيراتٌ تأتي من هنا وهناك، المتظاهرون لم ترهبهم عساكر الأمن المركزي ولا سلاحهم الميري ولا تلك التشكيلات المتنوعة من قوات الشرطة بسياراتها ومدرَّعاتها المصفحة.

مع تزايد حماس المحتجين والميدان لم يَعُدْ يَسَعُ أعدادهم، بدأت الاحتكاكات والمناوشات بين المتظاهرين وقوات الشرطة، سرعان ما تأزَّم الموقف مع تعامل الشرطة بقنابلَ مسيلةٍ للدموع وتساقط بعضهم اختناقًا من دخان هذه القنابل، كان ردُّ المتظاهرين

إلقاء الحجارة وخلع بلاط الرصيف يدافعون به عن أنفسهم من بطش الشرطة.

اختلَّ الموقف وزادت عمليات الكرِّ والفرِّ، بـدأت الغلبة للمتظاهرين الذين زادت جرأتهم وشعروا بقوَّتهم أكثر مع تراجع الشرطة وتقهقر عساكر الأمن المركزي، وسقوط بعضهم مضرَّجًا في دمائه جرَّاء الحجارة التي تُلقى عليهم.

صرخ القائد في جنوده: "اضربوا.. أطلقوا النار لا تترددوا.. دافعوا عن أنفسكم.." وقف حسن تقتله الحيرة ماذا يفعل هل يطلق النار فعلاً؟ تذكَّر والده المُسِنَّ المسالمَ الذي لم يحمل يومًا ضغينةً أو أذًى لأحدٍ، تذكَّر يوم أنْ نَهَرَهُ بشدَّةٍ لأنّه تغافل عن سقاية الماشية نهارَ أحدِ الأيام مطالبًا إياه بالرحمة، تذكَّر أمّه وقلبَها العليلَ دائمًا ما كانت تنصحه أن يعامل أقرانه بالحسنى، تذكَّر وردة ابنة الجيران التي شُغِفَ بحبها وينتظر يوم انتهاء تجنيده حتى يذهب بصحبة أهلها ليخطبها.

صيحات القائد انتشلته من نوبة شروده، صوَّب سلاحه تجاه صدور المتظاهرين لا يعرف على من سيطلق الرصاص، يخشى العشوائية أنْ يصيب بريئًا لا ذنب له، فجأةً أبصر شخصًا يجري ويركض مع المتظاهرين، دقَّق في ملامحه تيقَّن أنّه صديقه حسين

وشقيق حبيبته وردة، نَكَّس سلاحه وفاضت دموعه، كيف يطلق النار على هؤلاء ومنهم صديقُ عمره ولا شكَّ أنّه حضر مع أناسٍ آخرين من أهل بلدته.

تراجع حسن خطواتٍ متجاهلاً تحذيرات قائده وصياحه المقيت، حاول أن يصرخ في زملائه أنْ يَكُفّوا عن الضرب مع تزايد أعداد القتلى بين صفوف المتظاهرين وبحور الدم التي ملأت الميدان.

ما زال يتابع حسين لكنّه اختفى مع حالات الهرج، عيناه تتفحَّص الوجوه بحثًا عنه، يراه ثانيةً مازال يجري لكنّ رصاصةً أصابته فهوى مضرجًا بدمائه، يصرخ حسن، يصيح مناديًا:

"حسين"

لكنّ صوته ذهب هباءً وسط الصرخات وهدير طلقات النار، يُلقي بسلاحه، يهرول ناحيته مُحاوِلاً إنقاذه لكنْ بمجرَّد أنْ وصل إليه كانت طلقةٌ غادرةٌ أصابته من حيث لا يدري ليهوي صريعًا بجوار صديق عمره، تتلاقى دماؤها تروي الميدان الذي ما زال يشاهد، ربّما يحكي يومًا تلك المشاهد.

١٦ـ الشيخ

عقب حصوله على مؤهلٍ متوسطٍ، شدَّ الرحال إلى العراق للعمل كبقية أقرانه وكثيرٍ من المصريين، كان ذلك في مطلع الثمانينات. تنقَّل بين أعمالٍ شتى سواءٌ في مطاعم أو مقاولات، مضت سنواته لا يشعر بغربةٍ أو كللٍ.

حتى وقعت أحداث الغزو العراقي للكويت فاضطرَّ للعودة إلى مصر خالي الوفاض يبحث عن ذاته، تزوَّج، فشل في العثور على وظيفةٍ، فكر في مشروعاتٍ عدةٍ، تعدَّدت مشروعاته والفشل يلاحقه حتى استقرَّ به الحال وافتتح محلاً لبيعِ وتأجيرِ شرائطِ الفيديو، راجت بضاعته مع تنامي الطلب على المسرحيات الكوميدية والأفلام الهندية.

استمرَّ الحال في غبطةٍ وراحةِ بالٍ، لكنْ مع انتشار التكنولوجيا الحديثة في مطلع الألفيّة الجديدة، كَسَدَ مشروعُه ولم يعدْ للفيديو قيمةٌ مع تَوَغُّلِ واحتلالِ الحاسب الآلي عرشَ التّقدم.

اضطرَّ لغلق محلِّه والبحث عن مشروعٍ أو وظيفةٍ جديدةٍ، تنقَّل بين أشياءَ عدةٍ ومشروعاتٍ متباينةٍ ما بين فتحِ سنترالٍ أو الالتحاقِ بوظيفة رجلِ أمنٍ، لكنّ الفشل والخسارة كان يُلاحقه فصارت حياته غير مستقرةٍ وأحواله المادية تتعثر، الديون تتراكم عليه، مشاكله الأسرية تتفاقم مع تقدُّم بناته في السن وتزايد مطالبهنَّ.

فكَّر في السفر مرةً أخرى إلى إحدى دول الخليج، ظلَّ الحلم كامنًا بداخله حتى قامت ثورة الخامس والعشرين من يناير.

انضمَّ حينها إلى اللجان الشعبية للدفاع عن الحارة، تَعَرَّفَ وتقرَّبَ إلى مجموعةٍ من الملتحين دَعَوْه إلى المسجد.

صدقَ وعدَه معهم وبدأ يتردَّدُ على المسجد يؤدى الصلوات في أوقاتها، توثّقت علاقته بهؤلاء الملتحين، يواظب على حضور جلساتهم ودروسهم الدينية ليُحاكيَ سلوكهم ويطلقَ لحيته، ترتدي زوجته وبناته النقاب.

بدأ يهتمُّ بحفظِ وتجويدِ القرآن الكريم الذي أهمله في الماضي كثيرًا، راقَ له الحالُ والتحق كمُحَفِّظٍ للقرآن بكُتَّاب المسجد.

هداه تفكيره بعقليته التجارية أنْ يستقلَّ ويفتح مركزًا لتحفيظ القرآن في منزله يديرُه بمشاركةِ ومعاونةِ أسرته ليحقق رواجًا في المنطقة. فكّر في التطويرِ واستغلالِ هذا النجاحِ وحماسِ ومهارةِ زوجته وبناته، استأجر شقّتيْن بجوار بعضهما أدخلَ عليهما تعديلاتٍ لتُصْبِحا شقةً واحدةً، وافتتح حضانةً تعمل صباحًا، وعصرًا يتحوَّل المكان لتحفيظ القرآن للصغار والكبار من الجنسين.

راجت بضاعته الجديدة وصار من الأثرياء، اتسع نشاطه أكثر مع افتتاح فروعٍ عدّةٍ لكنّ ما يسعدُه حقًا ويزيدُ الزّهوَ بداخله أنْ تناديَه الناس بلقبِ شيخٍ مع طولِ لحيته وقصرِ جلبابه، ولأنّه يجيدُ فنون الحديث أصبح وجهًا مطلوبًا للظهور دومًا على القنوات الدينيّة لتتخمّر الفكرة في ذهنه ويبدأ الإعداد لإنشاء قناةٍ دينيةٍ....

١٧ـ السلم

على قارعة الطريق، يُطاردني قلقُ الانتظار، عيناي تتطلّع لسيارةٍ تقودني إلى غايتي، رنينُ هاتفِ محبوبتي يزعجني يلومني على تأخُّري، كانت كلماتُها في آخر مكالمة بيننا:

"لقد اخترتُ مكانًا جديدًا كي نلتقي؛ كافيه هادئٌ ورومانسيٌّ يقع أسفل الكوبري وطريقُه سهلٌ، اركبْ ميكروباص واطلبْ من السائق النزول عند السلم."

جاء الميكروباص بعد ترقُّبٍ طلبتُ من السائق أنْ ينبِّهني عند الوصول إلى الكوبري لأنني أنوى النزول عند السلم وأجهلُ الطريق. أومأ برأسه التي تهتزُّ طربًا مع تلك الأغنية الشعبية المزعجة التي يستمع إليها بنشوةٍ غريبةٍ.

ما زال رنينُ هاتفِ محبوبتي يقضُّ سكينتي، لم يشفع ردّي عليها بأني قادمٌ، تُبدي تذمُّرها من تأخري.

مرَّ وقتٌ ثقيلٌ لا أدرى ماهيَّته، عقلي تائهٌ في إعداد مبرراتٍ أقدِّمها عن تأخيري، لكن تنبَّهتُ على تَوَقُّفِ السائق يقول بلا مبالاة: "وصلنا الأخر يا بهوات."

نظرتُ حولي مندهشًا فلا يوجد كوبري أو سلمٌ، تساءلتُ منزعجًا عن السلم.

التفتَ السائق ممتعضًا يضرب بأصابعه على جبهته مُبديًا أسفه لنسيانه غيرِ المبرر، ثم صمت هُنيهةً ليطلبَ أن أعبر الشارع وأركب ميكروباص آخر من الناحية الأخرى وأقول للسائق عند مطلع الكوبري أن يُنزِلَني عند السلم.

ركبت مرةً أخرى ورنينُ هاتفِ محبوبتي يزيد توتُّري يُعلِن عن مللها من انتظاري، كاد عقلي أنْ ينفجر والسائق بصوته الغليظ يعلن:

"معلش يا حضرات هلف من الناحية التانية عشان فيه لجنة عند أول الكوبري."

١٨ـ الغرب

في زمنٍ ما، كان أحدُ الملوك الجبّارين يمقتُ الموت وينفرُ أنْ يُذكر في مجلسه، بِطانته طلبت من إمام الجامع ألّا يذكر الموت في خطبة الجمعة، امتعض الإمام لكنّه رضخَ خشيةَ البطشِ والجبروتِ.

لكنّ الإمام مع كلِّ خطبةٍ راح يردد مقولة "كُلُّنا إلى الغرب ذاهبون" حتّى صارت جملةً اشتُهر بها فتعجَّب الملك لهذا التكرار، سأل نُدماءه أنكروا معرفتهم.

أحضر الإمام ليقف بين يديه يسألُه عن مراده من هذه العبارة، ارتعد الإمام، انعقدَ لسانُه وارتعشتْ فرائصُه لكنّ أحد الخبثاء ممّن حضروا اللقاء، همس في أُذُنِ الملك أنّ تلك المقولة يُراد بها الموت فمقابرُ البلدة تقع في الجهة الغربية.

غضب الملك بشدةٍ ونظر شزرًا إلى الإمام، أمر بإيداعه في السجن وإمعانًا في تنفيذ كلماته أمر بهدم المقابر ونقلها إلى الشرق، وبناءِ سجنٍ كبيرٍ مكانها ليكون مكانًا يُعاقبُ فيه من يُخالفُ أوامر الملك، مع وَضْعِ الإمام فيه فور الانتهاء من تشييده ليكون عبرةً لغيره.

تبدَّدت الأحوال بعد سنواتٍ مع قيام ثورةٍ شعبيةٍ خلعت الملك من عليائه، وأودعته في السجن الغربيّ الذي شيَّده مكان المقابر.

في السجن قابل الإمام غريمه الملك المعزول فقال له:

"ألم أقل لك يومًا.. كُلّنا إلى الغرب ذاهبون!!"

١٩ـ صياد

يجلس متثائبًا، يرسل صنارته في قلب النهر الفاتر في ليلةٍ جفاها القمر، يحاول أنْ يستخلص مِن المكان برودته لعلَّ شعلة ألمه وهَمِّه تخفتُ، تداعبُ أذنيه ضحكاتُ ندمائه قادمةً تخترق سكون الليل، تركهم يخوضون في لهوهم وسمرهم، اختلى بعيدًا بالنهر، يناجي عِلَّته، ما عاد النهر خليلاً في زمنٍ ضنَّ بالأخلّاء وبات كالأوثان بلا روحٍ أو صدًى. تبدو الأضواء تومضُ من بعيدٍ كامرأةٍ شمطاءَ تُنَفِّرُ الأعين والمشاعر منها، يحاول أنْ يُغرِق آلامَه في النهر لكنْ باتت مياهه تلفظ كلَّ همٍّ، صار النهر صلدًا لا يتحمل هموم أحدٍ ولا يروى ظمأ مكلومٍ.

لم يَعُدْ هذا اليوم الذي يسرقه من الزمن كلَّ أسبوعٍ، ويَدَعْ حياته بما

تموجُ وتكتظُّ ليأتيَ هنا يمارس هوايته القديمة في صيد الأسماك ومداعبة صديقه الوفيّ النهر، مع أصدقاءِ الشباب لكنْ فَقَدَ النّهر رونقه وهَجَرَتْه الأسماك منذ أمدٍ بعيدٍ حتى نسمات السعادة التي كانت تحرس النهر اختفت، لم يعرفْ لها عنوانًا حتى الآن وأصبح حديثُ الذكريات معاناةً تجلب الحسرة وتزيدُ من قسوةِ سوطِ الأوجاع.

تمنّى لو تجرَّد من ثيابه وألقى بنفسه سابحًا مع موج النهر، ربّما يلطِّف وينعش آماله ويستعيد ملامحه التي شوَّهتها صفعاتُ الحياة، تخمَّرت الفكرة في ذهنه، مُردِّدًا كلمات:

"ليت الشباب يعود يومًا".. لا ينسى أنّه كان سباحًا ماهرًا يتفوقُ على أقرانه دومًا، يبتسم وقد تراءت صورته الطفوليّة على صفحة المياه، المتفرِّجون على الشاطئ يصفِّقون بدهشةٍ وانبهارٍ لمهاراته وقدراته في السباحة والرقص مع تموُّج المياه، ربّما بدا سمكةً أو راقصةَ باليه تنساب برشاقةٍ ومهارةٍ، تزداد ابتسامته تَوَهُّجًا وصورةُ والدته تعاتبُه بشدةٍ تخشى عليه يومًا أن يبتلعه النهر ويكون الغرقُ مصيرَه، حينئذٍ كان يقابل كلامها باستخفافٍ ودون مبالاةٍ يؤمن بإمكانياته، وثقتُه تزداد عندما يرى ولع الآخرين بقدراته في السباحة، يقف منتشيًا وصورته تمتدُّ في الأفق يتسلّم جائزة السبّاح الأول، ورئيس النادي يمدحه بوصفه طفلاً معجزةً وسيكون بطلاً

أولمبيًّا في السباحة. يومها وقف بوجهه الأمرد تكاد أنفه تخترق السماء يستجمع قواه لكي يستكمل المشوار، لكنْ جذبته طاحونةُ الحياة ليدورَ في المفرمة بلا هوادةٍ، فقد مات والدُه وتحمّل المسئولية، تقلّد سيف المواجهة، لم يشفعْ لنفسه أنْ تهدأ قليلاً بعد أن كبر أشقاؤه، تزوّج وأنجب ليدور في ساقية الحياة إنْ تراخى يلهب ظهرَه سوطُ المسئوليات لا يدعُه يهنأ لحظةً واحدةً.

ألقى بصنارته ناقمًا على ما آل إليه حاله، يتنفس بعمقٍ يستعدُّ لتحضير روحِ أمجاده القديمة، سيصنعُ مِن أحلامه القديمة أصنامًا ويشيِّد معبدَ سعادته التي افتقدها، سيتحدّى وهنَ العمر وكهولةَ السنين وينزل النهر دقائقَ أو ساعاتٍ ينغمس في مرتعِ فيضه، لن يخرج منه إلا وقد استعاد نَفْسَه، لن يتردَّد في خوض تلك المغامرة ربّما العلاج الوحيد للقضاء على التعاسة هي ممارسةُ الجنون ونزعُ كلِّ القيود وتحطيم السدود التي تَغشى أبصارنا. خلع ثيابه، برودةُ نسماتِ الفجرِ تَنْخَرُ في أوصاله لكنّه تجاهلها، نظر إلى أصحابه وجدهم قد ابتعدوا عنه أكثر وغرقوا في غياهب الظلام، ألقى بنفسه في النهر يحتضنُ مياهه باشتياقِ الولهان يستخرج صبابةَ الماضي، يستنهضُ كوامن قدراته يتحدَّى عمره الذي أشرف على الستين، عانده تيارُ الماء ربّما نسي الألفة التي كانت بينهما قديمًا

وكيف للنهر أنْ يتذكَّر وقد تجاوز آخرُ لقاءٍ بينهما أكثرَ من ثلاثين عامًا. يحاول الاندماج وترويضَ النهر لكنّ مياهه باتتْ جوفاءَ بلا مشاعرَ حتى رائحتِها الذكيةِ القديمةِ تبدَّدت وصارت العُفونة ملمحها، عادت الحسرة تطفو على وجهه، تغمُر كيانه فقد ضاع آخرُ أملٍ للسعادة في حياته، تهاوى حماسُه، المياه تنهشُه وماذا تفعل الأُسودُ إنْ عاد إليها مُدرِّبها بعد غيبةً طويلةً ولم يعدْ أحدٌ يعتني بها؟

في الصباح، وجدوا ثيابه على الشاطئ تشهد انكساره واستسلامه، عندما أخرجوه من النّهر كان ما زال فارِدًا ذراعيه، ربّما ينتظر الأمل وما فائدة الأمل في جسدٍ فارقته الروح؟!

٢٠ـ نزوة

تنحّى من فوقها بعد أنْ وصل إلى ذَرْوَته، وخمدتْ نيرانُ شهوتِه، شعر بتأففٍ قام عن السرير، يَنظرُ إليها، يتفحّص جسدَها المُترهِّلَ، شحمَها المكتنزَ، شعرَها المبعثرَ ووجهًا مُتهدِّل الأشداق. تبدو ساكنةً بعد ثورةٍ كَماءٍ كان يغلي سقطتْ فيه بعضُ القطرات الباردة فخمدَ فورانُه، مرخيّةَ الجفنِ منتشيةً، وقفَ يتأمّلها، لأولِّ مرةٍ يراها عاريةً بَدَتْ كشجرةٍ خريفيةٍ، يتساءل أهذه التي سعيتُ خلفها وتغزّلتُ في جمالها وتضرّعت في محرابها كي تلتفتَ لي وتبادلني الغرام، وبمرور الأيام يزداد لهثي خلفها حتى وقعتُ في براثنها وجئتُ هنا أنْهَلُ من عنفوان أنوثتها وفوران شبقها ؟؟! الآن تتعرّى الحقائق بتعرّي الجسد، تتجلّى الحقيقةُ الكامنةُ. اقتربَ منها

صَدَمَتْه رائحةُ عَرَقِها تزكُمُ أنفه، بَدَتْ كعجوزٍ شمطاءَ، جثا على ركبتيه، أطرقَ حزينًا تعتصره أنامل الندم. انتبه على صوتها تنادي عليه، قام رافعًا هامَتَه يحاول حبْس دموعِه، اصطدم بابتسامتها المصطنعة، تغمز بدلال، تفتحُ ذراعيْها تدعوه مرةً أخرى إلى مرتعِ أحضانها، بَدَتْ نَواجِذُها كأنيابٍ زرقٍ مهشّمةٍ، ترتعد أوصاله، تختلج نظراته فيُهرع يلملمُ ثيابه.. إلى الشارع هائمًا.

٢١ـ وئام

"مرحبا"

كلمةٌ تلقّيتُها منه بنبرةٍ فاترةٍ، ولدَتْ من رحم الجليد، يتطّلعُ إلى وجهي بدهشةٍ ربّما سؤالٌ يتصارع في داخله

"لماذا عاد وما الذي ذكّره بي الآن؟!"

نظراتٌ من الريبة تلاحقني على الرغم مِن محاولاته المصطنعة كي يُبدي حفاوَتَه وفرحتَه بزيارتي بعد طول انقطاع.

أجاهدُ كي أُضيفَ حرارةً للمكان بكلماتي المغلَّفة بعباراتِ المودّةِ وحديثِ الذكرياتِ.

أتذكَّر الماضي، اجتمعنا يومًا بِحُكمِ عملِنا في مكانٍ واحدٍ، توطَّدت الصلة بيننا وتنامت مشاعرُ الأُلفة لدرجةٍ أثارت حفيظةَ الحاقدين لينجحوا في نهاية المطاف في الوقيعةِ بيننا وبثِّ الضغينة

في نفوسنا وانقطاعِ حبلِ الودِّ بيننا، فصار الخصام سيّد علاقتنا.
لم يَفُتَّ في عضدي حينها، بل حاولت جاهدًا أنْ أُصلحَ ما بيننا وأَنْ يعودَ الوئام والمحبة إلى طبيعتها لكنّه في الخصام فجرَ وأمعنَ في الهجرِ فتركتُ له رسالةً أشرح فيها الأمر برمَّته قبل أن أنتقل إلى عملٍ آخر حتى تكون النفوسُ صافيةً.
بعد مرور عشر سنوات لم أدرِ لماذا قادتني قدماي إلى بيته كي أزورَه، ربّما الحنينُ لهذا المكان الذي شهد ضحكاتنا وصَخَبنا عندما كنّا نجتمعُ نتسامرُ ونلعبُ الشطرنج والطاولة، الآن بدا المكان صحراءَ مقفرةً تحتلُّ البرودة أركانه.
تركني لحظاتٍ وعاد يحمل أقداح الشاي، يحثّني على احتسائه كأنّه يتعجّل مغادرتي، رشفتُ منه فوجدته شايًا بلا شاي.
حاولتُ أنْ أوضّح له سوءَ التفاهم الذي حدث وتآمرَ بعضهم على علاقتنا، قاطعني بأنّه موضوعٌ قديمٌ يجب عدم فتحه الآن فكلُّ شيءٍ انتهى، وذهب لحال سبيله على حدِّ تعبيره، يجتهد كي يُبدِيَ الابتسام وعيناه تومض بإشاراتٍ غامضةٍ، شعرتُ بالجفاء..
نهضتُ أمدُّ يدي كي أصافحه ربّما يكون اللقاء الأخير بيننا.
في الخارج انتشيتُ بنسمات الارتياح فقد حاولتُ ترميم الشروخ القديمة، إعادة مجرى الوئام لكنّه ما زال على عهده من الجفاء.

٢٢ - إيصال أمانة

مفاجأةٌ عاتيةٌ وصدمةٌ قاسيةٌ كانت في انتظارنا، أقفُ ومعي زميلي أمام باب الشقة المغلقة، لا أثرَ للوحةِ الخشبيةِ التي تعلن عن مقرّ الشركة وصاحبها الأستاذ عماد اختفى، هاتفه مغلقٌ.

هرولنا إلى بوّابِ العمارة الذي ابتسم بلا مبالاةٍ مؤكّدًا أنّ الشقة كانت مؤجرةً وتركها المستأجر ولا يعرف وجهته.

حاولنا طرد فكرةِ أننا ضحايا لعمليةِ نَصْبٍ وأنّنا وقعنا في فخِّ محتالٍ حَصَلَ منّا على مبلغ عشرة آلاف جنيهٍ بحجة التعيين في إحدى شركات البترول، نُقنع أنفسنا زيفًا بأنّ الأمر بسيطٌ وسيظهر الأستاذ عماد بابتساماته الزاهية ونبراته القوية التي تنضحُ ثقةً، يحمل في يديه عقود العمل كما وعدنا ويحصل على باقي المبلغ حسب الاتفاق.

منذ أسبوعٍ مضى كنّا هنا في هذه الشقة وتلك الشركة المزعومة بأنّ نشاطها في الدعاية والإعلان، خدعتنا الوعودُ البرَّاقةُ، الكلماتُ المعسولةُ، الثقةُ المفرطةُ للمدعو عماد يفتخر بعلاقاته المتشعِّبة وقدرته على توظيفنا في البترول وأنّ الأمر برمته لن يستغرق سوى بضعةِ أيام، المطلوب منا فقط دفع النقود التي طلبها بحجةِ أنّه سيُحضر بها هدايا لأصدقائه في الوزارة ممّن سيُوقِّعون على عقود التشغيل وأنّه مجردُ وسيطٍ، فاعلِ خيرٍ لا يبتغي سوى الأجر من الله. صدَّقنا وعوده وآمنّا بكلماته.، تسلَّم المبلغ دون أنْ يوقِّع على ورقةٍ تضمن حقوقنا لكنّ بهاء حديثَه المُنمَّق خدَّرنا، لا نعلم عنه شيئا سوى أنه صديقُ رفعت الذي أخبرَنا بقدرته على تحقيق حلمنا بالعمل.

بعد اكتشاف الخديعة، لم يكن أمامنا سوى اللجوء للأستاذ رفعت الذي لم يكن سوى زميلِ عملٍ تعرَّفنا عليه في إحدى الصحفِ الخاصّةِ عندما كنّا نعمل مندوبي إعلانات بالقطعة.

لم نجده في مقرِّ عمله الأساسي في إدارة الإعلانات بجريدة الجمهورية، قيل إنه في إجازة، اتصلنا به فجاء صوتُه واهنًا حزينًا؛ فقد تعرَّض ابنه الشاب لحادثِ سيارةٍ أليمٍ وأنّه متواجدٌ معه الآن في مستشفى الهلال.

دقائقُ معدودةٌ كنّا بجواره نطمئنُّ على ولده، نواسيه، نشاركه

الدعوات بالشفاء.

الأستاذ رفعت من الشخصيات التي تقع في هواها بمجرد رؤيته فبشاشةُ وجهِه وهدوؤه وكلماتُه الحانيةُ تجبرك على تبجيله، رغم تجاوُز عمره الستين عامًا لكنّ المؤسسة جدَّدت له نظرًا لكفاءته وخبراته المتعددة في مجال جلب الإعلانات، لذا تَهافَتَتْ عليه الصحف الخاصة أيضًا، رغم قِصَرِ مدّة تعارفنا إلّا أننا تعلَّمنا منه الكثير فهو لا يبخل على أحدٍ بالنصح والعون، أرسَلَنا للمدعو عماد كنوعٍ من المساعدة والدعم وانتشالِنا من حالة الإحباط التي نعاني منها.

نحاول مواساته في مصابه إلّا أنّ حزنه كان أعمقَ وألمَه يتجاوز المدى، فيضُ دموعه تكشف حجم المأساة فلن يتوقف الأمر عند احتمالية أنْ يخرج ولده عاجزًا عن الحركة لكنْ تتضاعف المآسي.

قبل الحادث قام ابنه بتأجير عربةٍ ملاكي من مكتبِ تأجيرِ سياراتٍ كي يشارك بها في حفلِ زفافِ صديقه بعد أنْ وقّع على إيصالات أمانةٍ لكنْ ها هو ينقلب بها والسيارة بها مَتْلَفاتٌ جسيمةٌ، قال التوكيل إنّ تكلفة إصلاحها تتجاوز الثلاثين ألف جنيهٍ.

المكتب أصرَّ على إعادة السيارةِ سليمةً وتحمّل ولده كافة التكاليف وإلّا سيقدّم الإيصالات التي بحوزته إلى النيابة.

فطنةُ الأستاذ رفعت جعلته يلحُّ علينا كي يعرف سرّ أحزاننا أيضًا،

أبدى أسفه الشديد عندما علم باختفاء عماد، زادت همومه، يقسم بأنّه لم يكن يعتقد أنّه قد يكون نصّابًا وأنّ هناك شيئًا غامضًا، تحصّلنا منه على عنوان عماد بشبرا الخيمة على الفور ذهبنا هناك، طرقنا باب الشقة لم يردّ أحدٌ، تملّكتنا الحيرة من جديدٍ، جاره أكّد أنّه لم يظهر منذ أسبوعٍ وهذا شيءٌ طبيعيٌّ، يختفي ويظهر، يقيم بمفرده بعد انفصاله عن زوجته التي أخذت الأولاد وتعيش عند أهلها لكنه لا يعرف عنوانهم.

نصحَنا الجار بالذهاب إلى الحج فوزي صاحبِ محلِّ العطارة أسفلَ العمارة فهو صديقُ عماد وكانا يجلسان دومًا معظم الوقت في مدخلِ المحلِّ.

الحج فوزي استقبلنا بفتورٍ يُبدي ضيقه مِنْ كثرة مَنْ جاءوا ليسألوا عن عماد.

" أنا لا صديقه ولا حاجة هو الجدع اللي فوق عاوز يريّح دماغه كل ما حد يجي يسأل عنه يبعته لي.. عماد إنسان غامض له مشاكل كتيرة وعليه ديون لناس كتير وأنا واحد منهم استلف منى ألف جنيه..... يا ريت لو قابلتوه تفكّروه بِها "

مثلُ غيرنا أرشدنا أنْ نذهب إلى المعلم كمال شقيق عماد صاحبِ ورشةِ نجارةٍ بقرية أبو الغيط المجاورة.

انطلقنا تدفعنا الحَمِيّة، شعرنا بخيبة أملٍ من ردٍّ شقيقه قال لنا كأنّه يطردنا بوجهه العابس:

"أنا تبرّأت من أخويا من زمان من كتر مشاكله وتورطه في مشاكل مالية وكنت زمان بدفع وأسدد عنه لكن لما توصل للنصب على خلق الله، يبقى حدّ الله بيني وبينه.. أنا مخاصمه مش عاوز أعرفه، يا ريت لو قابلتوا اللي اسمه فوزي تبلغوه إنّه يبطل يبعت لي ناس تانية تسألني عن عماد."

عُدْنا بخفٍّ حنين إلى الأستاذ رفعت ندرك حجم ألمه على ولده لكنْ ربّما يكون طوقَ نجاةٍ وخيطَ الوصول لمعرفة السرّ وراء هذا الاختفاء العجيب، عقد ما بين حاجبيْه يبثُّ الطمأنينة بداخلنا بصوتٍ صارم:

"اطمّنوا.. أنا عرّفتكم على عماد وأنا المسئول عن حل المشكلة دي وأكيد هنلاقي حل.. هيروح مننا فين.. مصيره يظهر ويرجّع حقكم."

مرَّ أسبوعٌ سئمنا من الانتظار حتى جاءت البشرى، أخبرنا الأستاذ رفعت أنّ عماد رهينُ الحبس الآن في قسم الخليفة انتظارًا لترحيله لتنفيذ حكم حبس سنةً في قضية شيك دون رصيدٍ كان قد صدر بحقِّه.

قبل أنْ نعَضّ أناملَ الندم ونتيقَّن من ضياع نقودنا استطرد بأنْ نذهب إلى الأستاذ علواني المحامي فلديه ملفٌ كاملٌ بضحايا

عماد وسيتولى ملاحقته.

استقبَلَنا المحامي علواني في مكتبه الأنيق بوسط البلد يحدجنا بنظراته الحادة وشارِبه العريض، يبدو كالدّيك الرومي في موسم التزاوج، يستعرض قدراته ونحن نؤمّن على كلامه، نخفي تذمُّرنا لكنْ لا مناصَ.

عرفنا منه أنّ عماد نصابٌ محترفٌ يُوهِم ضحاياه بقدراته المختلفة سواءٌ بتوظيفِهم أو نقلِهم من مكانِ عملٍ إلى آخر وحلِّ مشاكلِهم يحصل منهم على مبالغَ ماليةٍ باهظةٍ مقابلَ ذلك، يستأجر شققًا ويفتتح شركاتٍ وهميةً ثم يختفي بعد كلِّ عمليةِ نصب ليظهر مجدّدًا بحِيَلٍ جديدةٍ لا يخشى أحدًا، الحكم بسنةٍ بدايةُ الغيث فهناك قضايا متعددةٌ تمّ رفعُها ضدّه ولو تمّ الحكمُ والفصلُ فيها ستعني جُملةَ أحكامٍ تُفضي إلى أنْ يعيش بقيةَ عمره خلف القضبان ولن يرى نور الشارعِ مرةً أخرى.

صرخت بيأس: "والحلّ؟"

انتفختْ أوداجُه أكثر، لمعت عيناه، يبتلِعُنا بنظراته، يداعبُ شاربَه، يَحُكُّ أنفه، يتوهجُ وجهُه بابتسامةٍ غامضةٍ، يفتح ذراعيه كمنْ يفتح نافذةَ النور، يتحدّث بصوته الجهوري:

"طبعًا علواني عنده الحل وبسيط رغم إن مش معاكم أيّ دليل أو

ورقة تؤكد إنه حصل على أيّ مبالغ منكم.. وأكيد وهو في السجن حاليًا صعب تاخدوا منه مليم وهينكر إنه يعرفكم.. لكن بمبدأ نص العمى ولا العمى كله المطلوب الآن إننا نحصل منه على ورقة عليها توقيعه تكون وصل أمانة أو شيك على بياض ونلاعبه به بعد كده ودي لعبتي ودوري أنا والجميل إن لي معارف في سجن الاستئناف.. فيه عسكري وأمين شرطة هيدخلوا له لمحبسه في هدوء نص الليل ويجبروه على التوقيع لكم على ورقة تضمن حقكم.. المطلوب منكم مبلغ تافه.. عشان خاطركم ألف جنيه بس هقسمها عليهم بمجرد ما ينفذوا المهمة."

لم نجد أمامنا سوى دفع المبلغ على أملٍ يترنّح تشوبه الحيرة، بعد أيام عُدْنا إليه، قابَلَنا تعلوه الخُيَلاء، قدّم لنا الورقةَ إيصالَ أمانةٍ مذيّلةً بتوقيع عماد، أعدنا إليه الورقة مرةً أخرى وعيناه تنضح دهاءً لكي يتولّى الأمر مع عماد.

أمّا الأستاذ رفعت فقد هلّل لنجاح المحامي في هذا المسعى يَصِفُه بالعقرب، وُلِدَ والحيلةُ في دمه، نشاركه فرحةَ شفاء ابنه رغم دفعه لـ "تحويشة" العُمُر لإصلاح السيارة.

انتهى أملُنا بالتعيين في البترول والتمتع بغنائمه، نحاول تذوُّق طعم الأحلام من جديدٍ، نترقب الآمال من بعيدٍ..

٢٣ - عِيش صَب[١]

تعالتِ الأصواتُ وتداخلتِ الكلماتُ والجدُّ عثمان يجلس شاردًا يصمُّ أذنيْه عن عبثِ هذا الكلام على حدِّ تعبيره فلمْ تعجبْه لغةُ أبنائه ولا لهجةُ أحفاده، بذورُ التحدي تترعرع في داخله يأبى موافَقَتَهُم ومجاراتِهم النّهِمَة نحو بيعِ أرضه الزراعية بأعلى الأسعار بحُجّة أنّها أصبحت أرضَ مبانٍ، كيف يتخلى عن أرض أجداده التي ورثها ونشأ وتربى من خيراتها ووجودها؟ كيف يفرِّط في الخير الذي عاش به ومِنْ أجله؟ كيف يُضيِّع تلك الأمانة؟ لماذا لا يكملُ رسالتَه كما فعل الأقدمون في تسليمها للأجيال الجديدة؟ لكنْ، ما بالُ تلك الأجيال وقد نُزِعَ من قلبها الرحمة بالأرض وإدراك

(١) نوعٌ من أنواع الخبز صغيرُ الحجم يُصنع في الريف من دقيق الذرة

قيمتها التي لا تقدَّر بثمنٍ؟ لا يهمهم الآن سوى حصد الأموال، ينظرون للمصلحةِ النفعيةِ باكتنازِ الأموال مِنْ بيعها، لم تَعُدْ في نظرهم كنزًا ينهلون منه طيلة حياتهم ويسلمونها لمن بعدهم، تنفرِطُ دموعه وتنهمرُ على خطوط الزمان التي حفرها على وجهه، وأذناه تتألمُ من سماع لغة الطمع والجشع وكأنّها غنيمةٌ أو فريسةٌ تريد الوحوشُ نصيبَها الآن لا تفكّر في الغد.

لم يَعُدْ قادرًا على الزراعة والإمساك بالفأس وقد فشل في أنْ يجعلَ أبناءه يَرِثون مهنة الأجداد ويرتبطون بالأرض، لم يكنْ مخطئًا عندما أصرّ على تعليمهم وحصولهم على شهاداتٍ توظّفوا بها. لكنْ لم يكنْ يدري، زُرِعَ في قلوبهم الجَدْبُ تجاه الأرض وانتقلت العدوى بشراهةٍ أكثر إلى الأحفاد، يتحسَّر إلى ما آل إليه الزمان، سنواتُ عمره الثمانون بذكرياتها وتداعياتها تمرُّ أمام عينيه كشريطٍ سينمائيٍّ والآهات تخنقه وصور الماضي تتراءى بروعتها لتؤكّد أنّ الحاضر مسخٌ مشوهٌ.

صرخ بكلمة "لا" عندما سمع الجميع يتَّفِقون على بيع الأرض، لنْ أُفَرِّط في تراب أجدادي

من أجل حفنةِ أموالٍ ستزول حتمًا وتتلاشى من الجيوب بينما تبقى الأرض تجود بالعطاء تُجدِّد منابع الخير. التفَّ حوله الأبناء

والأحفاد يحاولون إقناعه بجدوى بيع الأرض يسوقون فيضًا من المبررات فحُجَّتُهم أنّ الأرض لم تَعُدْ خصبةً كما كانت مع حصارِ العمران لها وأنّها ستباع أرضَ مبانٍ وبالتالي سيحصدون من ثمنها مبالغَ خرافيةً وسيعُمُّ الخيرُ على الجميع.

ضرب عصاه في الأرض معلنًا التحدي مستجمعًا صبابةَ قُوَّته التي لم تقهرها السنون محاولاً إخفاء دموعِه وحسراتِه، يكتمُ آهاتِه وهو يرى كتلاً خرسانيّة مشوّهة تزحف على أرضه

تحاصرها والأرض تختنق يومًا بعد الآخر واللونُ الأخضرُ ينحصر أمام لون الأسمنت المقيت.

بعد شهورٍ رضخ مرغمًا للواقع المرير فلم تَعُدِ الأرض تجود، أصابها القحط مع تهافت الزبائن عليها لشرائها، وارتفاع ثمنها بشكلٍ خرافيٍّ لم يكن يومًا يتصور ذلك.

بكى وعلا نُواحُه والجميع من حوله في غمرتهم ساهون تتقافز الفرحة إزائهم وهم مشغولون يقتسمون الأموال، تمنى الموت فحياتُه كانت أرضَه وانتهى الأمر الآن، بات الرحيلُ أمنيةً يسعى إليها، الغربة تطوِّقه وآلامٌ شتى تحاصره، فَقَدَ الرغبة في كلِّ شيءٍ حتى أصدقائه القدامى معظمُهم الموتُ حصد أرواحهم ومن بقى أضحى أسير القعود على فراش المرض، حتى الحياة، كلُّ شيءٍ

تبدّل فيها وتوحّشت أخلاق الناس وتهافتهم الماديّ.
أيامٌ معدودةٌ وتحولت أرضه إلى كتلٍ خرسانيّةٍ صماءَ لا روح فيها، قبَّحت المكان وشوّهت عيون الجمال، الطوب محا الزرع الأخضر وتوحّشت القرية مع تفشّي البناءِ العشوائيِّ واختفاءِ الخضرةِ تدريجيًا، أبناؤه وأحفاده شيّدوا دارًا جديدةً على أحدث طرازٍ معماريٍّ طالبوه بالانتقال معهم، أبى أنْ يترك داره القديمة التي تُعشِّش فيها ذكرياتُ حياته وعبقُ سعادته الفائتة مع زوجته الراحلة لكنْ مع إصرارِهم والوهنِ الذي اشتدّ عليهم رضخ لهم.
دخل الدار الجديدة لم يجد فيها روحًا ولم يشعر بأيِّ ألفةٍ كانت، مجرّد غرفٍ متجاورةٍ صامتةٍ بجدرانٍ صلبةٍ صادمةٍ تُفَرِّق بين الأحباب، لا يوجد وسطٌ للدار كي تصبح متنفسًا ومنفذًا للضوء ومأوًى للسمر يَنْفُضُ فيها عن كاهله عناء النهار، لا يوجد فرنٌ بلديٌّ كي يخبز فيها العيش، زوجات أبنائه امتَنَعْنَ منذ فترةٍ عن الخبيز فقد اكتفينَ بالعِيش الأبيض البارد الذي يأتي كلَّ صباحٍ من المخبز الآلي الذي تم افتتاحه في القرية، لا يشعر نحوه بأيِّ ألفةٍ، أو يتذوقه فطعمُه مثلُ الماء البارد لا يسمن ولا يغني من جوعٍ، يأكله ولا يستسيغه لكنْ مجبرٌ. أبدى يومًا أمنيةَ تناولِ عيشٍ صبٍ، ضحكت زوجات أبنائه يُبدينَ دهشتهنَّ مطالباتٌ إياه أنْ يَدَعَ

ضلاله القديم فلمْ يَعُدْ أحدٌ يخبزه، سخرت زوجات أحفاده من مُسمّى العيش الصب فهنَّ لم يسمعنَ عنه من قبلُ. انزوى يتجرَّع كأسَ ذكرياته وانطوى على آلامه يتذكّر المرحومة زوجته عندما كانت تستيقظ مع آذان الفجر تأتي بالدقيق وتقوم بالعجين، تُشعِل الحطب في الفرن فيصير نارًا متوهّجةً تخبز العيشَ القمحَ السخنَ لذيذَ الطعم، تخبز كذلك العيشَ الصبَّ من دقيق الذرة الذي يحبُّه كما تفعل باقي الفلاحات، ومِنَ العيشِ الصبِّ يعمل فتَّة اللبن كي يفطر بها قبل ذهابه إلى الحقل ويأخذه معه كي يأكله للغداء مع الجبن القريش الأبيض وعيدان الفجل والبصل الأخضر.

ينظر حوله إلى جـدران البيت الجديد فلا يجدُ سوى صورٍ مشوّهةٍ وقبحِ صلدٍ، يتذكّر روعة داره التي كانت مِنَ الطوب اللبن والشمسُ تغمرها طيلة اليوم من جميع الجهات والضوءُ والهواءُ ينفذان إليها فتصبح في الصيف نسيمًا عليلاً لا تَعْرِفُ حرًّا أو تشبه تلك الدار التي تتوهج كالفرن وفي الشتاء ينعم فيها بالدفء، أمّا هذه الدار فقد صارت ثلجًا ورطوبةً تتوغّل في الأوصال فتجلِب السقم والشيخوخة المبكرة. العرسان كي يتمم زفافهم لا بدَّ من شقةٍ فخمةٍ مستقلةٍ مليئةٍ بكلِّ وسائل الراحة الرفاهية. تبسَّم عندما تذكّر لحظة زواجه بعد أنْ باع والده القطن، بنى له غرفةً فوق سطح

الدار سقفُها من البوص وقشّ الأرز الذي لا ينفذ ماء المطر منه في الشتاء، حسده أقرانه حينئذٍ عندما جلب من البندر نقّاشًا كي يدهن الجدرانَ بالجيرِ الملوّنِ ويزخرفَ الأركانَ برسوماتِ عصافيرٍ وورودٍ، اشترى سريرَ نحاسٍ عالٍ يشبه الموجود في دوّار العمدة بالإضافة إلى طشتٍ للاستحمام وصندوقٍ خشبيٍّ لوضع الثياب. كانت أمنيته وقتها أن يشترى مرآةً كبيرةً لكنّ ثمنها فاق إمكانياته.

يزداد حسرةً كلّما رأى الدنيا أحوالها تتغير حوله. استيقظ ذاتَ مساءٍ، يتّجه ناحية الحمام لكنْ بمجرّد أن دلفَ انزلقت قدماه على السيراميك، هوى، ارتطم جسده الضعيف لتتعالى صرخاته توقظُ مَن في البيت، لمْ تشفعْ محاولات الأطباء في تركيبِ شرائحَ ومساميرَ لترميم عظامه ليبقى قعيدًا يعاني آلامًا مبرّحةً منتظرًا الموت بعد أنْ سئم الحياة.

آخرُ طبيبٍ زاره قال لأهله نفِّذوا أيَّ طلبٍ يريده، طلب عيشَ صَبٍّ لكنْ صُبَّ في الأذنِ صممٌ منذ أمدٍ بعيدٍ.

٢٤- مشاعر امرأة

جاءتني تبكي، دموعها يقظ الصيف، تشكو جفاءه، تُبدي مقتها لتجاهله، تبحث عن حبّه، لا تمانع أنْ تفعل ما يعيد للأمور رونَقها، أحاولُ أنْ أستوعب بعضًا من بقايا كلماتها المحطّمة وسط نزيف بكائها. سألتُها الهدوءَ لكنْ كيف لنافذةٍ نسمةُ سكونٍ وعاصفةٌ بالخارج تَئِدُ براءتها؟ عليها أنْ تحتمل، تجاهد معه كي يرى النور تبدّد ضبابه، تتلقّى كلماتي بفورانِ الشجنِ وآهاتٍ مكتومةِ الوهن. لم يكن اختيارَها؛ والدُها رسم طريقها، تقبّلت قَدَرَها بسكينةٍ تُمنّي نفسَها بجناتٍ عرضُها الحبُّ والبهجة، لكنّه بدا متجهّمًا مُلبّدًا بثقةٍ طاغيةٍ ليس مِن سَمْتِه التعبير عمّا بدا وأخفى، كلّما حاولت أنْ تُحلِّق في فضاء السعادة تبدّدت آمالها مع تعسُّف قلبه، تسألُه

تفتشُ عن ودِّه المفقود تصطدم بصخرةٍ عاتيةٍ، كونُها امرأةً خُلِقتْ مِن رحم الأحاسيس تنشد عطرًا يسدُّ رمق مهجةِ الهوى، تضيء شموع معبده وتصبح راهبةً في محرابه، لمْ تَجْن سوى أرضًا قاحلةً كلّما ثارت وهددت بالرحيل أتى مستسلمًا يظنُّ أنَّ الأمر لا يحمل مشكلةً يتعهَّد بالتغيير، عندما تَعُود يَعُود لصورته الكلاسيكية المقيتة، عملُه موطنُه وراحتُه، الصمتُ مسلكُه، عيناه لا تفارقُ حاسوبه الشخصيّ، تسعى لكسر الجمود بفيضانٍ من الحنان وكلماتِ العبيرِ، يَرُدُّ باقتضابٍ وسَدُّه المنيع يُجهض صفاءها، هجرتْ فِراشَه بعد أنْ سئمتْ شخيره وأنانيته، تمنَّت لو دعاها إليه، خاب أملُها.. سألته يومًا الذهاب إلى الطبيب بعد أنْ تأخّر حلمُ أمومتها، سخر منها، الآن تشعر بالرضا ما زالت تمتلك جزءًا من حريتها ربّما تُفضي بقرار الرحيل فلا يمنعها عائقٌ، تعود تبكي تسألني لماذا لا يفهم كوني امرأة؟

٢٥ـ إمبابة.. إمبابة

كاد الدكتور عليّ أنْ يقفز عن كرسيّه في المعمل الزجاجيّ بمركز البحوث الذي يعمل به، تتقافز الفرحة بداخله، نسماتُ السعادة تتراقص مِن حوله، رفع رأسه بجهدٍ وهتف

"أخيرا!! نجحت التجربة بعد مشقةٍ.. سيكون اكتشافًا علميًّا مذهلاً.. سوف يبهر العالم كله."

قرّر ألّا يخبر أحدًا في تلك اللحظة، عليه أنْ يتأنّى حتى تنضُج الفكرة تمامًا ويكرّر التجربة ويتيقّن من نتيجتها، تنهّد مِن أعماقه ونظرُه عالقٌ في السماء يشكر ربّه على هذا النجاح الذي تحقّق، يتجهّم قليلاً، يتذكّر التجاهل الذي يعانيه، لا أحدَ يشعر بوجوده أو بتجاربه حتى الصحف قاطعته ولم تسأل عنه أو يدعوه أحدٌ إلى

المحافل العلميّة، ربّما لأنّه لا يجيد الأضواء أو الحديث عن نفسه، وربّما لأنّ الناس لم تَعُدْ تهتمُّ بالعلم؛ شغفُها متعلقٌ بأشياءَ أخرى، يعيش منعزلاً كاهنًا في صومعته، طول اليوم في معمله يعكف على تجاربه وحيواناته التي تمثل عالمه وسرّ نجاحه فدونها لن يحقّق أيّ طفرةٍ في تجاربه.

خلع عويناته والبالطو الأبيض وانصرف عائدًا إلى منزله، في موقف سياراتِ الأجرة يقفُ وسط الزحام بحثًا عن سيارةٍ تقلُّه إلى مسكنه في إمبابة. طُوفانٌ من البشر يطوِّقه كلّما جاءت سيارةٌ هُرِعَ خلفها الناس يقفزون عليها، يتزاحمون، كلٌّ يبحث عن مقعدٍ ومكانٍ. يقف حائرًا، عتابُ زوجته يتردَّد في أذنه

"كلّ الناس أصبح عندها عربية ملاكي ونحن ما زلنا نتشعبط في الأتوبيسات وسيارات الأجرة.. الناس من حولنا انتقلت من هذه المنطقة العشوائية ونحن ما زلنا هنا في علبة السردين هذه بحي إمبابة.. اتحرّك مثل زملائك.. حياتنا محلّك سِرْ"

طفرتْ على مُحيّاه ابتسامةٌ ساخرةٌ وهو يتحاشى اندفاعَ الناس نحو سيارةِ أجرةٍ قادمةٍ ينادي التَّبّاع

"إمبابة.. إمبابة"

يتحسَّس جيبه، تعتصره مرارةٌ وراتبُه لا يكاد يكفي الشهر ما بين

متطلبات الحياة ونفقات زوجته والأولاد.

عثر على مكانٍ في الميكروباص أخيرًا. لكنْ، ما هذا السائقُ بصوته الكريهِ يدعوه للحشرِ في الكرسيّ الخلفيّ كرابعٍ، تراجع رافضًا، يضحك السائق ساخرًا: "خلاص أنت حرّ دور لك علىً تاكسي وريّحنا"

شابٌّ في الكرسيِ الأمامي يتطوّع للعودة إلى الخلف ليُفسح له بالجلوسِ مكانَه.

أحدُ الرّكاب يعاتب السائق: "احترم الناس، الرجل شكله بيه ومحترم."

يُغمغم السائق بكلامٍ كثيرٍ لم يُفهم منه سوى جملة "بيه على نفسه"

يشعر بمرارةٍ، تترقرقُ مدامعه بعد أنْ تذكّر والده الذي حرص على أنْ يُدْخِلَه أعلى الكليّات ويستكمل دراسته كي يكون له قيمةٌ بين الناس بعلمه.

يعود إلى منزله منهكَ القوى، يَصُمُّ أذنيه عن حديثِ زوجته وعتابِها المعهود، لا يفكّر إلّا في تجاربه واختراعه الجديد.

تتوالى الأيام، يعلنُ عن تجاربه، تحيطُه هالةٌ من الإعجاب، وكالات الأنباء العالميّة تُفْرِد له مساحاتٍ للحديث عنه وإجراءِ حواراتٍ معه، صحيفةٌ مصريةٌ نشرت له خبرًا صغيرًا في صفحتها الداخلية بينما تصدّرت صفحتُها الأولى صورةَ النجمة السينمائية الشهيرة

ترفعُ قضية نسبٍ على الفنان المشهور الذي تبرّأ من أطفالها.
منحةُ المركز البحثيّ، مكافأةُ الاختراع الجديد مكّنته من شراء سيارة فيات ١٢٨ موديل الثمانينات، لم يعبأ بسخرية زوجته، كلُّ ما يهمّه أنْ يبتعد عن بلطجةِ وتحكُّم سائقي الميكروباص فلا زال موقفُ السخرية الذي تعرّض له يثير حُنقه كلّما تذكّره.
في أحد الأيـام، كان عائدًا من عمله يَرْكَبُ سيارته، سائقُ ميكروباص يقودُ بتهوّرٍ كاد يصطدم به وتنقلبُ سيارته. توقّف الدكتور عليّ هلعًا يلتقط أنفاسه بصعوبةٍ واضعًا يديه على صدره يحمد الله على نجاته، لمح في المرآةِ ضحكةً ساخرةً مِن هذا السائق المتهوّر، انفعل، زاد حنقه، خرج الشرر يتطاير من عينيه، توجّه إلى سائق الميكروباص الذي كان لا يزال جالسًا في مكانه أمام عجلة القيادة، يوبخّه ويعاتبه لكنّ قائد الميكروباص ضحك بكلِّ برودٍ، أمسك بالدكتور عليّ مِن الكرافته بكلِّ عنفٍ، يسحبه بفظاظةٍ وغِلٍّ شديدٍ وقاد الميكروباص بسرعةٍ فائقةٍ، الدكتور عليّ يجري معه عنوةً وملامحُه تقطُر هلعًا وخوفًا، يجرجر قدميه المتثاقلتين، بينما تتعالى صيحاتُ وصراخُ كلِّ مَنْ يشاهد الموقف "اتركه يا مجنون"، يحاول التخلص مِنْ هذه القبضة ودقاتُ قلبه تتسارع مع تزايد السرعة.

فجأةً تركه السائق لِيَدورَ في الهواء، كاد يسقط تحت عجلات سيارةٍ أخرى لكنّ سائقها تفاداه بصعوبةٍ، يهوي محتضنًا الرصيف بكلِّ قوةٍ، تعلو أهاته، لمح قهقهةَ سائق الميكروباص يفرّ بفعلته، غامت الدنيا في عينيه برهةً ثم أفاق على تَجَمْهُر الناس من حوله يشعر بآلام لا حصرَ لها تجتاح جسده، أصواتٌ تتداخل ما بين مطمئنٍ عليه ومَنْ يحاول مساعدته على النهوض وبين سَبٍّ لهذا السائق، تمزّقت سترته والخدوشُ والرضوضُ تملأ جسده، تاهت آهاته مع ضجيجٍ يأتي من قهوةٍ مجاورةٍ روّادُها يشاهدون مباراةً في كرة القدم، يشجعون بهستيريا ويهتفون لهذا اللاعب الذي أحرز هدفًا.

٢٦ - مباراة اعتزال

دخلتُ الإستاد مرةً واحدةً لا تُنسى في حياتي، أتذكرُ عندما كنتُ طالبًا في الجامعة في فترة التسعينيات، ذهبتُ بصحبةِ صديقٍ ألهب حماسي وزرع الثقة بداخلي كي أخوض تلك المغامرة.

وصلنا إلى الإستاد بعد مشقةٍ لنجد زحامًا رهيبًا وأكوامًا مِن المشجعين تتكدّس على الأبـواب، بعضُهم يحاول الحصول على تذكرةٍ للمباراة، آخرون يسعَوْن للدخول، الشرطة تبذل جهدًا مضنيًا للسيطرة على هذا الطوفان البشري. جاءوا من كلّ حَدَبٍ وصَوْبٍ لحضور مباراةِ اعتزالِ النجمِ الشهيرِ ومعشوقِ جماهيرِ كرةِ القدم. صديقي كان محظوظًا فقد نجح في الحصول على تذكرةٍ منذ يومين نتيجة تبرّعه بالدم، فمهرجان الاعتزال تمّ

تسويقه أيضًا من خلال حملات التبرع بالدم التي استغلّت اسم النجم وشهرته في الترويج لها. الطبيب في سيارة الإسعاف رفض أنْ أتبرّع بدمي بحجة أنني نحيفٌ ومظهري يَدُلُّ على أنني أعاني من أنيميا، الآن أحاولُ الحصول على تذكرة، لا بدّ من اختراقِ هذا الكمِّ والدخول في معترك الطوابير، خشيتُ من ضياع نقودي وسرقة محفظتي في خِضَمِّ هذا الزحام.، أخذتُ ثمن التذكرة وأودَعتُ المحفظة بما تحمله من نقودٍ وبطاقتي وكافّة أوراقي مع صديقي، طالبتُه بالانتظار هنا تحت الشجرة، توجهتُ والتحمتُ بتلك الجموع، حاولتُ الوقوف في طوابيرَ تمتدُّ إلى بضعة كيلومتراتٍ. لكنْ، اختلط الحابلُ بالنابل مع تدافع الآلاف، كدتُ أسقط تدهسني الأقدام لولا تشبُّثي بشابٍ فَتيٍّ كان بجواري. موظفو الإستاد أغلقوا شبابيك التذاكر نتيجة الفوضى، حالاتٌ من الهَرَج والمَرَج، والشرطةُ حاولت السيطرة على الموقف ممّا نتج عنه بعضُ المناوشات وكرٌّ وفرٌّ من بعضهم. بحثت عن صديقي فلمْ أجِدْه، الزحام حاصر الشجرة، الفوضى هي سيدة الموقف. صاح بعضهم بأنّ هناك شباكًا آخرَ للتذاكر في البوابة الخلفية، هرول وسعى كثيرون حيثُ صاح المنادي. وقفتُ، التفتتُ يمينًا ويسارًا تمزّقني الحيرة، أبحثُ عن صديقي، أُفتّشُ عنه ربّما أُصادفه، لكنْ

لا أثرَ له، لمْ أَجِدْ بُدًّا من الفرار إلى البوابة الخلفية ربّما سعى إلى هناك اعتقادًا منه أنني ذهبت. بدا الموقف أكثر نظامًا عند البوابة الخلفية فقد أحكمت الشرطة سيطرتها على الموقف؛ عساكر الأمن المركزيّ تنتشر بكثافةٍ، تطوّق طوابير المشجعين، بأيديهم الهراواتُ والجِدّيّة والصرامة تبدو على وجوههم، بعضُهم يمسك بالكلاب البوليسية التي ترتعد لها الأوصال، الضباط يجلسون على الكراسي يراقبون الموقف، أدورُ في المكان أبحثُ عن صديقي، فوجئتُ بضابطٍ يُمسك بجهاز اللاسلكي يصيح في وجهي غاضبًا يطالبني بتجَهُّم وحِدّةٍ شديدةٍ أنْ أقفَ في الطابور، تملّكني الرعب فهرولتُ أقفُ في الطابور دون أنْ أنبسَّ ببنت شفةٍ، لكنّ عيوني تتفحص الوجوه بحثًا عن صديقي، لا يشغلني أمرٌ سوى العثور عليه، فكرتُ في العودة لكنْ حتى ثمن التذكرة الذي بحوزتي الآن لا يكفي أجرة المواصلات، حصلتُ على التذكرة بعد مشقةٍ بالغةٍ وزاد حزني أنّ صلاة الجمعة ضاعت في غمرة ذلك.

دخلت إلى الإستاد لأوّل مرةٍ، رغم أنني شاهدته مرارًا في التليفزيون لكنّ صورته في الواقع توحي بالرهبة والشموخ وسط الجماهير العريضة التي تزأر تهزّ الأركان، لكنني تذكرتُ ضياع صديقي، أتساءل هل دخل الإستاد؟ إذنْ أين هو وسط هذه الحشود التي

تبدو كبحرٍ لا شطآنَ له؟ حاولتُ التجوّل وسط مدرجات الدرجة الثالثة أخترقُ أمواج البشر لكنْ بدا الأمر كمن يبحث عن ذرةِ ملحٍ وسط محيطٍ.

نسيتُ مهرجان الاعتزال، ولم يشغلني هذا المطرب الشهير يغني وحوله مجموعةٌ من نجوم الفنّ وأنا الذي لمْ أَنَم الليلة الماضية أحلمُ بتلك اللحظة، وحيدٌ أنا وسط كلِّ هذه الجماهير، أجلسُ دقائقَ ثمّ أعودُ لأبحثَ عن صديقي، أتضوّر جوعًا، تذكّرتُ الأكياس التي بحوزة صديقي وبها السندوتشات وعلب الكشري والعصائر والمياه الغازية.

الإرهاق يُثقل خطواتي، يزيد من ألمي، أخشى من سيناريو ما بعد المباراة كيف سأعود وصديقي معه كلُّ أموالي وبطاقتي الشخصية؟ استحالةٌ أنْ أعثر عليه وسط هذا الكم، حاولتُ الانشغال بمتابعة مباراة الاعتزال التي بدأت، ومتابعة النجم الشهير الذي أعشقه وأعتبره مثلي الأعلى وحضرت خصيصًا من بلدتي كي أحضر مباراة اعتزاله حبًا وعشقًا له، أراه أمام عيني يجوب الإستاد يُحيّي جمهوره العريض والإستاد يهتزُّ من هتافاتهم ومواويل العشق التي يُغَنّونها عشقًا لهذا النجم الكبير، أحاولُ النسيان والذوبان في تلك اللحظة التي أتمنى ألا تنتهي حتى لا أواجه متاعبي جرّاء ضياع

صديقي من بين يديّ. ربّما يبحث عني أيضًا ويتألم لفراقي ويشعر بمعاناتي. لا أدري هل تجوّلتُ وبحثتُ في كلِّ مدرجاتِ الدرجة الثالثة؟ لكنْ يبدو الأمر عسيرًا مع وجود أعدادٍ متلاحمةٍ يصعب اختراقها والسير وسطها.

انتهت المباراة وانفضّ المهرجان وبدأت الجماهير تغادر الإستاد، أكاد أبكي، أفكّر ماذا سأفعل؟ كيف سأعود وليس معي نقودٌ؟ دعوتُ الله والدموع غلبتني، أقفُ على باب الإستاد أتفحّصُ الوجوه، أدقّقُ في الملامح وأُحملقُ في المعالم ربّما تَحْدُثُ معجزةٌ وأجدُ صديقي. مشيتُ وسط بركان إحباطي أنظرُ خلفي ربّما يكون... تكاد رأسي تنفجرُ من نزيف أفكاري، أنظر لأسفلَ وقد بلغ بي اليأس عتيًّا، كدتُ أصطدمُ بأحد الأشخاص يسير أمامي رفعتُ رأسي كي أتفادى ذلك لكنني فوجئتُ بأنّه هو، عرفتُه من ظهره، انقضضتُ على رقبته أقبضُ عليه من الخلف وصراخٌ هستيريٌّ تملّكني، بدا غاضبًا عندما التفتَ ورآني. ينهرني متسائلاً: "أين كنت؟ ولماذا اختفيت فجأةً؟" يؤكّد أنّه لم يهنأْ بمباراة الاعتزال فقدْ جاب المدرجات يبحث عني، حاولتُ التبرير لكنّه أشاح بوجهه غاضبًا وكأنني تعمدتُ الاختفاء، تلاشى صوتي وسط صخبِ الجماهير تندفعُ بسعادةٍ إلى الشارع.

٢٧ـ الثائر الحق

عاش في رغدِ العيش يهنأ بكلِّ رفاهيةِ وبهجةِ الحياة وفيضٍ مِن الخير الوفير. لا ينقصه شيءٌ، رغم ثرائه الفاحش إلّا أنّه كان يتألم لحال العبيد من حوله لتعرضهم للظلم والاضطهاد والحرمان مِنْ أبسط حقوقهم في حياةٍ كريمةٍ فالمَلِكُ يستغلّهم، يعرّضهم للذلّ والهوان، قرّر الثورة، المطالبة بحقوق هؤلاء العبيد فقد سئم مِن خنوعهم وخوفهم، قرّر أنْ يكون صوتَهم في المطالبة بالعدالة الاجتماعية لهم، وقف في الميدان الفسيح يستنهض هِمَمَ العبيد ويحثّهم على الثورة على الطغيان، وعلى هذا الملك المستبد لكنّ طلقات الغدر اغتالته.. في جنازته سار العبيد يهتفون ويهلّلون بالمجد للملك.

معلومات عن الكاتب

- **الاسم**: محمد صلاح زكريا
- **المهنة**: أخصائي نفسي وقاص وروائي

صدر للمؤلف:

مجموعات قصصية:

- "إنسان في زمن النسيان " ٢٠٠٥
- "سبحة و كاس" ٢٠١٢

روايات:

- "الضائع بين يديّ " ٢٠١١
- "سلوى " ٢٠١٣

الجوائز الأدبية:

- جائزة الرواية في المسابقة المركزية للهيئة العامة لقصور الثقافة عام ٢٠١٣
- جائزة المجلس الأعلى للثقافة في القصة القصيرة عام ٢٠١٤

فهرس المحتويات

الإهـــــداء ٥
١ – صورة ٧
٢ – نهاية امرأة ١١
٣- رئيس التحرير ١٥
٤ – آخر صورة ٢٧
٥ ـ الحلم والوهم ٢٩

٦ - نشوة الغضب ٣٥
٧ - الملتحي والمتبرِّجة ٣٩
٨ ـ بسمة على شفاه الموت ٤٣
٩ ـ أبناء الهيش ٤٧
١٠ ـ عانس ٥١
١١ ـ عصفور الخريف ٥٣
١٢ ـ غروب ٥٩
١٣ - وصية المرحومة ٦٣
١٤ ـ هارد لك ٦٧
١٥ - حسن وحسين ٧١
١٦ ـ الشيخ ٧٥
١٧ ـ السلم ٧٩
١٨ ـ الغرب ٨١
١٩ ـ صياد ٨٣

٢٠ ـ نزوة ٨٧
٢١ ـ وئام ٨٩
٢٢ - إيصال أمانة ٩١
٢٣ - عِيش صَب ٩٩
٢٤ - مشاعر امرأة ١٠٥
٢٥ ـ إمبابة.. إمبابة ١٠٧
٢٦ - مباراة اعتزال ١١٣
٢٧ ـ الثائر الحق ١١٩

للاطلاع على أحدث إصدارات مؤسسة إبداع

يرجى زيارة الموقع الإلكتروني

www.prints.ibda3-tp.com